اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

دكتور بول غليونجى

كُلّ .. لا تأكُلّ

عادات الشعوب الغذائية

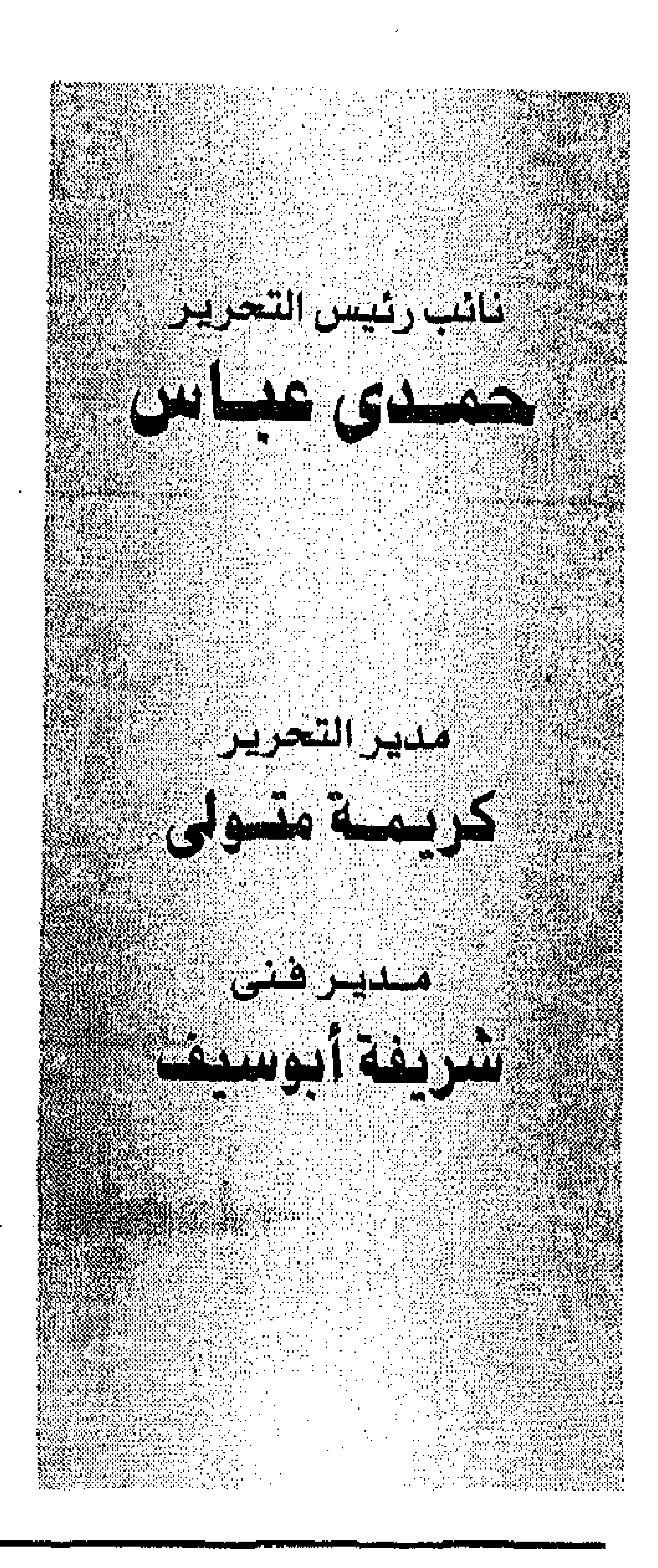


دار المعارف



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٤٤٩]



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

دكتور بول غليونجى

كل.. لا تأكل

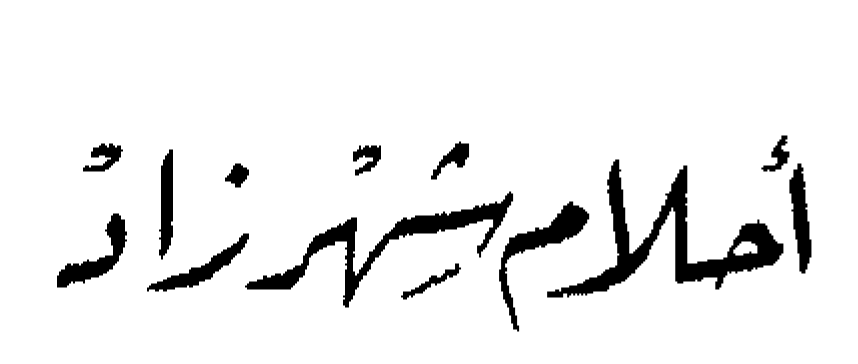
عادات الشعوب الغذائية

الطبعة الثانية



دار المعارف

اقرأ



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

المحتويات

مقدمة

إن للإقبال على بعض ألوان من الطعام والعزوف عن بعضها الآخر فى حضارة ما معانى تتجاوز حدود التسجيل التأريخى لهذه الحضارة ، وتتناول البيئة والاقتصاد ، وتخوض أعماق القيم الدينية والروحانية ، وتتصل بالنظرة إلى الكون وتصور تركيبه اللذين سادا عهدها ، وهذه المعلومات لا يستطاع معرفتها إلا بتحليل ماكدسه المؤرخون من خلال دراسة آلاف السنين الماضية وما سبق الحقبة الطويلة التى ينحصر فيها إرثنا القابل للسبر والتحليل .

وإننا - إذ نلاحظ رسوخ الرواسب التى خلفتها العادات القديمة والتقاليد العتيقة التى كثيراً ما ظلت متحجرة بعد زوال الدوافع إليها ونسيان عللها ، وعلى تعاقب النظريات التى ابتكرت لتفسيرها على مر السنين وفقاً للتطور الفكرى الذى قارنها .

وإذْ نعترف بعلاقة أغلب الاتجاهات الشائعة فى عالمنا الحالى بالديانات السماوية الثلاثة السائدة فيه ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية .

ثم إذْ نلاحظ نشأة هذه الديانات بلا استثناء فى رقعة صغيرة من البسيطة هى التى تسمى بالشرق الأدنى ، بل إذْ نظرنا إلى توارث العقائد والشعائر بعضها عن بعض – إننا فى هذه الحالة يتبين لنا أهمية إدراك نشأة العادات الخاصة بما يؤكل وبما لا يؤكل ، هذا إذا ابتغينا تبيان عقلية إنسان القرن العشرين .

وبما أن تجميع كل المعلومات المفيدة عن بلاد الشرق الأدنى بأكملها مُحال فى نطاق هذا المؤلف المحدود – سنقصر أكبر جزء من بحثنا على شعوب مصر القديمة ، وعلى ما ورد عن العبرانيين وعرب الجاهلية ، وهى الشعوب التى توفر لنا أكبر قدر من المعلومات ، مع بعض الإضافات عن البلاد المجاورة أو المتصلة بها ، أو عن بلادٍ تكون عبرة للدارسين ؛ عسانا نوفق إلى رسم صورة عامة لا تنقصها الدقة ، عن نشأة تلك العادات وتطورها على مرّ القرون والحضارات .

وإننا حين نبادر بمثل هذه الدراسة إنما نسعى إلى تحقيق غايات عدة ليس أقلها أهمية معرفة الإنسان للإنسان : فمعرفة طعام قوم سواء أكانوا من سكان الكهوف أم من رواد ناطحات السحاب إنما هى إحدى السبل إلى معرفة طائفة من العناصر تجمع بين علوم التاريخ ، ومعرفة الأساطير ، والمذاهب والجغرافيا الاقتصادية والمناخ والفن والطب والآثار .

يتاح عندئذ الاقتراب إلى أسمى هدف يتعين على المؤرخ ، ذلك الهدف الذى عبر عنه سقراط الفيلسوف الإغريقى – بنصيحة أسداها إلى تلاميذه لتكون لهم منهجاً ونبراساً ، تلك النصيحة التى استحالت إلى شعار كتب على معبد دلفى وهى : « اعرف نفسك »[1]. ولعل هذا الشعار يذكرنا قولا آخر مأثوراً وهو : « قل لى : ماذا تأكل أقل لك من أنت ؟ »

ومن ثم فإن مثل هذه الدراسة تمهد لنا إلقاء الضوء على عاداتنا المتقلبة من زاوية جديدة ، وتقرب لنا فهم التقاليد والأوهام الأجنبية التى تبدو لنا غريبة أو منفرة أو غير معقولة .

وفى عالمنا الراهن الذى انفجر عدد سكانه انفجاراً مخيفاً ، والذى اتسم بعدم التساوى فى توزيع الثروات الغذائية ، وبكثرة المجاعات ونقص التغذية فى بعض البلاد مع انتشار أمراض الاكتظاظ فى بلاد أخرى - فى عالمنا هذا - قد يتيح إدراك أصول هذه التقاليد إزالة العوامل التى تعوق توسيع الرقع لموائد بعض الشعوب المكبلة بقيود عتيقة عازفة عن التمتع بما جاء به الخالق الكريم لأسباب وهمية ومخاوف زائفة .

ولذا فإننا بعد أن اقتبسنا كلمة سقراط تروقنا كلمة منسوبة إلى كاتب إغريقى لاحق هو مناندر الأثينى الذى علق على كلمة سقراط بكلمته المأثورة : « قد يكون مبدأ (اعرف نفسك) مبدأ محموداً ، ولكنك لا تضمن سلامته فى جميع المواقف ؛ فإن منها ما يفضل معه قول : اعرف غيرك ! » .

هذا إننا نعيش فى تناقض عجيب ربما وصفه المثل العامى : «باتت جعانة وجوزها خباز ! » إننا نسرف فى استهلاك عدد محدود من الثروات بدون مبالاة أو تخطيط ، ثم نشكو قلتها على حين نجهل أونتجاهل عشرات أمثالها لانفكر فى استغلالها ، بل نصر على نبذها خضوعاً لعادات عقيمة أو لأسباب عاطفية وهمية !

لقد سخر لنا الخالق الكريم الملايين ولم يحرم إلا أربعة :

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . .) سورة لقمان / ٢٠ .

مازالت القبائل التقليدية تنعم بهذه الكثرة ، وتتمتع بصحة جيدة برغم تأخرها الفنى ، فقد كتب جريفتى[٢] أن سكان بوتسوانا يتغذون بنحو من مائة نوع من

الأصناف الأليفة ، بالإضافة إلى مائتين وعشرين نوعاً من الأطعمة الوحشية ، منها : الحيوانية كالإبل والسلاحف والثعالب على أنواعها ، والتمس والأرنب الوحشي والقطط الوحشية والجاموس والقنفذ والغزال والظبي والضبع وابن آوى وبقر الوحش والماعز الوحشي والسنجاب والدب والذئاب والأسماك والرباح والعرس والوبر والعلند والديكر والظراف والفيل ووحيد القرن والضفدع والوعل والجراد والنمل والزنبور والدود وحشرات أخرى وما يُربي على ثلاثين نوعاً من الطيور الوحشية .

ومنها النباتية وهي تشمل الخضر الورقة والجذور والأبصال والثمار والأصماغ والقشور والفطريات والزهور .

غير أن عدد المأكولات ينحصر مع التمدين لجهل السلالات الحديثة بالمأكولات الوحشية وزيادة الوقت الممضى فى المدرسة والذى كان يمضى فى الغابات حتى إننا إذا أمعنا النظر فى طعامنا وجدنا ٩٠٪ منه إنما يعتمد على أربعة أصناف من اللحوم ، هى : البقر والغنم والدجاج والسمك ؛ وعلى ستة حبوب ، هى : القمح والشعير والأذرة والدخن والفول والعدس وعلى نحو من عشرة أصناف من الخضر ومثلها من الفواكه .

ولنذكر مما لا يؤكل فى بلادنا وإن كان يوفر طعاماً مفيداً ورخيصاً يروق غيرنا – أن الصينيين يستحسنون الكلاب والقرود والطحالب وعش الخطاف ، وأن بعض الأفريقيين مولعون بالحشرات والكلاب ودهن النمل وبأصناف لا ندركها من الثمار والجذور ، وأن المكسيكيين يتهافتون على أكل الكلاب ، وأن العرب يعدّون الجراد والضب أكلا شهياً ، وأن صحارينا تأوى ملايين القواقع يعزف البدو عن أكلها مع ما يعانونه من نقص الزلاليات ، لعلنا نجد فى هذا عظة وعبرة .

وبما أننا فى دراستنا سنعتمد على آثار عريقة وروايات قديمة – علينا أن نذكر

بعض التحفظات التى - لو أهملناها - أضاعت قيمة تفسيراتنا ، فى حين أنها - إذا سقناها - أضافت دقة إلى دراستنا .

وتلك التحفظات يمكن ذكرها على الوجه الآتى :

١ - خطر قياس الأحداث القديمة بمعايير متخذة من سيكولوجيا إنسان القرن العشرين أو ثقافته أو خبرته .

٢ - خطأ اعتبار عادات وتقاليد دولة يمتد تاريخها عبر ثلاثة آلاف سنة وهى مدة تساوى ضعف التاريخ الهجرى - خطأ اعتبار هذه العادات والتقاليد ثابتة طوال هذا التاريخ : ذلك أن الاختلاف بين حياة معاصرى (مينا) موحد القطر المصرى ، وبين رعايا البطالمة قد يوازى على صورة ما الفارق بين حياة عربى الجاهلية ، وبين حياة حفيده ساكن أحدث العواصم العربية .

٣ - خطأ الأخذ بعادات حقبة معينة فى دولة ما على أنها تمثل العادات العامة لكل سكان هذه الدولة ، ومن ثمّ خطورة إهمال الفوارق الناتجة عن اختلاف الطبقات الاجتماعية وعن تباين البيئات كحسبان غذاء الفلاحين قياساً على غذاء البدو أو مآدب أثرياء المدن ، أو تعادل طعام سكان السواحل وغذاء سكان الواحات والصحارى ، أو إطلاق ما اعتاده أتباع الإله (أوزيريس) على أتباع (ست) ؛ كما سنرى فيما بعد .

٤ - عند بناء استنتاجاتنا على أساس ما كشف عنه من بقايا نباتية أو حيوانية فى خلال عمليات التنقيب خطورة إهمال العوامل التى أدت إلى بقاء تلك الآثار ، أو التى دفعت إلى إيداعها فى القبور أو المعابد حيث تم الكشف عنها - فإن هذه البقايا - وإن بقيت فى أرض مصر بفضل جفاف تربتها وجوها - من الكثرة والتباين مالا يجعل لها مثيلا ، غير أنها لاتشمل سوى جزء ضئيل مما كان يؤكل عندئذ ، وإلى هذا فإن القدر الباقى يختلف مع اختلاف قدرته على البقاء وتحمله

عوامل التلف ، ولذا فإن البقايا الحيوانية لاحتوائها عناصر صلبة كالأسنان والعظام - أقدر على البقاء من المواد النباتية . والنبات المركب من ألياف أو خشب كالبذور والجذور أصلح للبقاء مما لا يحوى إلا جرماً طرياً كالفواكه والثمار . وأخيراً فإن مجرد ورود مادة - لا يقيم برهاناً قاطعاً على استخدامها طعاما : فقد يكون الحيوان المدفون من بهائم النقل ، أو من الحيوانات المؤلهة ، أو من الحيوانات الأليفة ، وقد يكون استعمال النبات لمجرد الزينة

٥ - اتخاذ الحجة الغيابية برهاناً : كاستنتاج عدم وجود ظاهرة ؛ لأنها لم تذكر ، أو لأنها لم يكشف عنها بعد ، وهذا النوع من الأدلة يعده علماء المنطق أضعف البراهين .

٦ - تغير معنى اللفظ الواحد على مرّ السنين ، أو تباين مدلوله فى البلاد المختلفة : ولنضرب لذلك مثالا من العهد القديم ، هو استعمال هيردوت لفظة (زيا) بمعنى الحنطة ، وهى الآن تطلق على الأذرة وفى العصر الراهن اختلاف مؤدى (الخوخ) أو (البطيخ) أو (العيش) فى بلاد متجاورة تنطق بالضاد . ونضيف إلى هذه الصعوبة عدم تقسيم القدامى الفصائل الحيوانية أو النباتية فى الدقة التى نراها ضرورية اليوم .

٧ - عوامل خاصة بالمؤرخ : إن أغلب الذين أرخوا للشرق الأدنى كانوا من المسافرين الإغريق وعلى رأسهم هيردوت وقبل أن نأخذ بحقيقة رواياتهم - علينا أن نتحفز لها لأسباب ناتجة عن طبيعة صلاتهم بأهل البلاد التى زاروها ، أو بنزعاتهم الخاصة ، أو بإهمالهم تسجيل بعض الملاحظات وتركيزهم على ما بدا لهم غريباً أو طريفاً :

(ا) إن المركز الاجتماعى الذى يتمتع به المؤرخ الجائل يحدد الطبقات التى يسمح له بمعاشرتها ، والمناطق التى يزورها ، والمرافق أو المعاهد التى يتفقدها ، ومن

ثم نوع الخبرة التى يجنيها . وجدير بالذكر أن أكثر المؤرخين كانوا من السياح الأثرياء ، أو كانوا ينتمون إلى فئة من فئات الكهنة أو الفلاسفة ، فكانت أغلبية الأوصاف التى أوردوها فى كتاباتهم تعكس بطبيعة الحال عادات الطبقات المقابلة لهم وتقاليدها ، كما أنها صنفت لمتعة مستمعين من الطبقات نفسها وإثارة فضولهم ، فألحت على النواحى الغريبة ، وربما تجاوزت الحقيقة فى تقديرها لها .

(ب) ومن جهة أخرى فإن علماء المصريين وكبارهم كانوا يحتقرون هؤلاء الزوار ، ويعدونهم دون مستواهم ، ويعزفون عن لقائهم على حسب ما ذكر هؤلاء المؤرخون أنفسهم . ومن أوقع ما ورد من هذا القبيل قول أحد كهنة هليوبولس (عين شمس) إلى (صولون) مشرع الإغريق وواحد من حكمائهم السبعة : « ياصولون ، إنكم لاتزالون أطفالا ! لا يوجد شيخ (عالم) من بين الإغريق »[3] ، ويؤكد كانيادس هذه النظرة فى القرن الثانى – الثالث ق . م : فقد جاء عن لسانه : إن الكهنة لا يختلطون بغيرهم إلا فى الأعياد الرسمية ، أما فى الأيام الأخرى فإن الوصول إليهم يستعصى على أى امرئ يرغب فى محادثتهم[4] .

وقد عرف العرب ستار السرية الرهيبة الذى كان يسدل على العلوم المصرية ، وصعوبة رفعه : فقد روى ابن أبى أصيبعة [5] ما واجه فيثاغورس من المحن عندما توجه إلى الديار المصرية للاطلاع على قبس من علوم كهانها ، قال :

« اشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر ، فابتهل إلى فولوقراطس أن يكون له على ذلك معيناً ، فكتب إلى أماسيس ملك مصر كتاباً يخبره بما تاق إليه فيثاغورس ، ويعلمه أنه صديق من أصدقائه ، ويسأله أن يجود عليه بالذى طلب وأن يتحسن عليه ، فأحسن أماسيس قبوله وكتب إلى رؤساء الكهنة بما أراد ؛ فورد على أهل مدينة الشمس ، وهى معروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم فقبلوه قبولا كريما ، وأخذوا فى امتحانه زماناً ، فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً ، فوجهوا

به إلى كهنة منف ؛ لكى يبالغوا فى امتحانه ، فقبلوه قبولا على كراهية ، واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا له عثرة ، فبعثوا به إلى أهل ديو سبولس ؛ ليمتحنوه ، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاضه سبيلاً لعناية ملكهم ، ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كما يمتنع عن قبولها ، فيدحضوه ويحرموه طلبه ، فقبل ذلك ، وقام به ، فاشتد إعجابهم منه ، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره أماسيس فأعطاه سلطاناً على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يُعطَ غريبٌ ذلك قط .

(جـ) اضف إلى هذا صعوبة اتصال الزائر بالشعب اتصالا مباشرا لاختلاف اللغة ، وإن كان معروفاً أن مدارس للترجمة لتعليم الأغريقيين اللغة المصرية أسست فى مصر منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة[6] إلا أن أكبر الظن أن هؤلاء التراجمة كانوا يجهلون غوامض الأسرار الدينية ، وأنهم لم يعتادوا التصريح إلا بما يوافق كرامتهم الوطنية ، أو ما يثير إعجاب (زبائنهم) كما يفعل اليوم (التراجمة) فى المواقع السياحية . وأنهم كانوا يتكتمون ما كانوا يعدونه مخجلا ، أو ما يظنونه مثيراً للسخرية من لدن الزوار ، أو عدم تفهم الزوار حقيقته ، أو ما كانت السرية التى كانت تغشى كل الأمور الدينية لا تُسيغ الإجهار به .

(د) إهمال المؤرخ أو مرشده ذكر ما يظنه مفهوماً بداهة : كعدم ذكره الماء من بين المشروب أو الخبز من بين المأكول .

٨ – خطورة قبول التفسيرات السهلة التى تبتكر من آن لآخر دفاعاً عن عادات قديمة أو تعصباً لها ، أو إشباعاً لغريزتنا السببية التى لا تستريح إلا بابتداع تفسير ، ولا ترضى منه إلا ما أُلبِسَ لباساً ذا مظهر تعقلى يروق من يدعى ثقافة علمية دون تحقيق دقيق .

٩ – وهنا علينا أن نبين سبب استنادنا إلى حجج متخذة من روايات وأساطير

يجوز الشك فى حقيقتها التاريخية . هذا إن لكل رواية شكلا وموضوعاً .

والشكل إنما هو ثوب جميل طرزته مخيلة الراوى مستمدة خيوطها من غرائزه وميوله وتكوينه وبيئته وإرثه ومن كل عنصر ذاتى أو خارجى كيّف ذهنه وحدد أهواءه ومشاعره .

أما الموضوع فهو مستمد : إما من الذاكرة الجماعية التى توارثت تاريخ الأسلاف - وإن لم يخل من التحريف - وإما أن يكون من خلق الراوى ، فلا يخلو اختياره أو ابتداعه من التأثيرات التى حددت هى نفسها الشكل . وعليه فإن الأسطورة إذا ورثها الشعب وراقت عينيه ، ورددتها السلالات المتتالية - إنما هى مرآة لذهن هذا الشعب وترجمة لفكره ، يتيح تحليلها إدراك أساليب تفكيره .

١٠ - وختاماً نحب أن نعترف بازدواج تأثير العنصر الواحد وباختلاف اتجاهه على حسب الظروف : كأن يكون حكم التقديس تارة الإقبال تقديرا للشىء المقدس ، وأطواراً النهى احتراماً له ، وبالعكس : أن يكون حكم العداوة والنفور الإحجامَ عن اشمئزاز أو النحر للانتقام ، ويمكن وضع العناصر ونفوذها فى الجدول التالى :

الاتجاه	أسباب إيجابية	أسباب سلبية
السماح	التكريم استساغة الذوق الوفرة	الانتقام
النهى	التقليس الضرر الصحى التميز عن حضارة مجاورة أو معادية مجاملة قوم فاتح أو مجاور أو صديق اعتبارات دينية عوامل موسمية	النفور عن إله معاد عدم استساغة الطعم عدم الوفرة وخشية اندثارها اعتبارات دينية النــدرة

الباب الأول

بعض العوامل المؤثرة على اختيار الطعام ومناهج البحث فيها

اكتسب الأكل لشدة أهميته وللحاجة الأساسية إليه – معانى تفوق مجرد قيمته الغذائية ، وتنبع عن أعماق الذهن التى لاتزال تفكر بأساليب تحت المنطقية ، أساليب ورثتها من أجيال من القحط والجوع والمعاناة بحثاً عن الزاد .

يبحث الإنسان عن طعام يشبع بدنه ومشاعره ، ولا يعنى بمركباته الكيمياوية أو بقيمته السعرية ، ولذا فإن العلم الحديث المبنى على علمى الكيمياء الحيوية ووظائف الأعضاء – مع إنجازاته الهائلة – عجز عن تفسير التباين بين قوت شعب وقوت غيره .

فالأكل جماعة تحية وديباجة عندما يقدم قدح من القهوة أو حفنة من التمر ، وهو تكريم عند إقامة الولائم ، وإعلان الإنفاق عند عقد الصفقات ، وترحيب وضيافة ، . . . ، و . . . .

وطالما قدر المصريون مآكلهم وأسندوا إليه صفات ومعانى واضحة فى عاداتهم وتقاليدهم منها : معان دينية ، ومنها معان اجتماعية :

معانى الطعام الدينية

مفهوم الذبح وشعائره : من المرجح أن هيبة الحياة وخشية الموت أدخلتا فى قلب الإنسان احترام كل مظاهر الحياة ، ولما كان الموت بسبب النزف فى الحرب أو القنص أمراً يشاهد كل يوم فإن الدم عد مركز الروح إن لم يكن هو الروح نفسها ، وسنأتى فيما بعد بنصوص تثبت رواج هذه الفكرة . وانطلاقا من المبدأ أن الإله - لأنه مانح الحياة - هو الوحيد الذى يحق له سلبها - فقد قُدس الدم وقدست الحياة ، وأصبحت عملية نحر البهائم عملية طقسية لا يقوم بها إلا ممثل الإله على الأرض ، وهو إما الكاهن وإما شيخ العشيرة ، واشترط فيها تقديم الذبيحة إلى الإله على النصب مصحوباً بطقوس معينة وبتلاوة اسم الإله عليها . وقد نتج كذلك عن مثل هذه الاعتبارات أن بعض أجزاء الذبائح كانت تخصص للإله أو للكهنة : إما لمعناها الروحانى ، وإما لملابسات تاريخية ، وإما لمجرد الاستئثار بها ، وهذا ما سنناقشه فيما بعد .

أكل اللحوم الآدمية : إذا استثنينا أكل اللحم الآدمى للضرورة - كما يحدث فى المجاعات وجدنا أن هذه العادة المنكرة إنما كانت قديماً طقساً دينياً يراد به استيعاب الآكل للمأكول ، وامتلاك شخصيته ، واكتساب صفاته ؛ ومازالت على ذلك حتى اليوم عند القبائل البدائية : فإننا نرى شعوب أواسط أفريقيا وبعض مناطق أمريكا يأكلون البشر فى خلال مآدب يتكتمون أمرها ولا يشاركهم فيها غير المريدين والمقبولين فى جمعياتهم السرية ، ثم يخضعون أنفسهم لطقوس معقدة من التطهير .

ويبدو أن الإنسان البدائى عندما ارتقى ذهنه إلى البحث عن هويته وعن حقائق الكون خمن أن الأكل وسيلة لاقتباس طبيعة المأكول. وتركت هذه الفكرة رواسب لونت النظريات الطبية حتى عصر النهضة، ودعت فلاسفة الأطباء أمثال ابن سينا إلى البحث عن طبائع الأطعمة لمحاولة التوفيق بينها وبين طبيعة الشخص الذى يتناولها (انظر الباب الخامس) وإننا نقابل هذه النظرية على أكملها فى المظاهر الآتية:

تمثيل الآلهة وما هو سوى امتداد للنظرية السابقة، نجد فى بعض نصوص الأهرام ما يشير إلى عادات سحيقة القدم لم يبق منها فى عصر الفراعنة إلا تلاوات مفادها أكل الآلهة لاكتساب صفاتها مثلا:

« أوناس[1] هو ثور السماء الذى يتغذى من جوهر كل إله، ويأكل حواياهم.

هو الذى يأكل الرجال ويزدهر بأكل الآلهة.. يأكل سحرهم ويستوعب أرواحهم، ويخصص الكبار للإفطار والمتوسطين للغذاء والصغار للعشاء » !

ومع تقنين الأديان وتنظيمها نصبت هذه الشعائر الرامية إلى « تمثل » الآلهة على غرار تمثل الطعام أسساً للكثير منها. والأمثلة لهذه الطقوس كثيرة: إما فى شكل تناول لحم حيوان طوطمى مؤله، وإما فى تناول لون من الطعام تُليت عليه العبارات التى تمنحه صفة الإله وهويته.

أكل أجزاء الحيوان لاكتساب طبائعها المزعومة كأكل قلب الأسود لاكتساب الشجاعة. وهذا النوع من التفكير ساد العلاج الطبى سنين حيث كانت توصف الحجارة الحمراء لعلاج ضعف الدم، والأزهار الصفراء لعلاج اليرقان، إلخ. وهى التى أدت بالعالم الفرنسى (براون - سيكار) إلى تعاطى الغدد الجنسية

---

(١) أوناس: فرعون من الأسرة الخامسة (حوالى ٢٤٥٠ ق.م).

لاستعادة شبابه المفقود ، ففتحت الباب لعلم الغدد الصمّ .

ومن هذا اللون من التفكير نسبت صفات وهمية لبعض الأطعمة وفرضت روابط خفية بينها وبين أجزاء البدن ، ويمكن رد هذه الروابط تارة إلى أسطورة أو حدث تاريخى ، وطورا إلى قوانين التشابه والقياس التى تحكم السحر والتى تستنتج الأفعال من الشكل واللون إلخ . وقد جمع جريفتى[2] فى أواسط أفريقيا أمثلة عدة من الربط بين الطعام وبين السن ومراحل الحياة والمركز الاجتماعى ، نذكر بعضاً منها :

١ – لا يأكل الصبيان بقايا العصيدة العالقة على الملاعق الخشبية خشية تضخم الثديين .

٢ – لا تأكل الصبيات البيض خشية الإنجاب مبكراً ؛ والصلة بين البيض والخصب واضحة .

٣ – يحرم على الصبيان والبنات ستة أصناف :

(ا) العسل إذا وجد فى الحفر

(ب) العسل الذى على الأشجار خشية فقدان الذاكرة ، ولا يخشى ذلك المسنون لضعف ذاكرتهم .

(حـ) الدجاج الحبشى ذو العرف .

(د) الدّراج

(هـ) الختوّ : وهو طائر ضخم المنقار خوفاً من استطالة وانعواج الرقبة فى صورة منقار هذا الطير .

(و) السلحفاة ، خشية الإصابة بحدبة

٤ – أما ما حرم على البالغين فإنه يرتبط بالجنس وبمراحل الحياة :

(ا) إذا حملت امرأة حرم زوجها أكل لحم بقرة نفقت فى أثناء الولادة ؛ لأن هذا يعرض حياة الأم ووليدها للخطر .

(ب) تُمنع الحوامل من أكل اللحم والشحم وجلد البطن خوفاً من أن يولد لهن أطفالٌ ذوو بطون ضخمة وهم بشع .

ومن اللبن الحامض لأنه يعرض أطفالهن للقيء المستمر .

ومن معدة البقر الرابعة خوفاً من تعسر الولادة .

ومن أمعاء البقر الغليظ للسبب نفسه .

ومن البيض لئلا يتوقف نَفَس المولود .

ومن لحم سيقان البقر ونخاعها للسبب نفسه .

ومن الحلوى وإلاَّ كثر بصاق المولود .

٥ - وبالعكس : توصف أطعمة خاصة لبعض الفئات :

يعطى الأطفال لحم الأرانب والغزلان ليكتسبوا مهارة .

يغذون بالسمك لأنه غذاء نافع للدماغ .

تخصص العصافير للصغار .

تخصص (الكلاوى) للشيوخ ، وكذلك المعدة الثالثة والعجول الميتة فى أثناء الولادة تحفظ للعجائز المعدة الرابعة والأنف والذقن .

يحرم للجميع دب النمل وهو الحيوان الملكى للقبيلة .

وقد ذكر « جريفىّ » أيضا أن أجزاء معينة من الحيوانات ، وبصفة خاصة من القنص ، توزع فى بعض القبائل التقليدية على حسب نظام غاية فى الدقة :

يئول الكبد لسيدة المنزل ، والأطراف الأمامية لأكبر أولاد صاحب المنزل أو أكبر إخوته ، وفى غيابهم لأعلى الحاضرين مركزا ، وتئول الأطراف الخلفية إلى أصغر الأنجال وإن كانت أكبر من الأطراف الأمامية ، والسبب هو أن الصغار يحتاجون إلى اللحم أكثر من حاجة الكبار إليه .

ويعطى لحم ناحية من الظهر كبرى البنات ، والناحية الأخرى كبرى

الأخوات . ويختص صاحب الدار بالصدر ، اللهم إلا إذا كان لحم صيد ، فيختص به رئيس القبيلة ، والضلوع من نصيب صائد الفريسة وخاله .

وتُجزأ الحوايا على الوجه التالى : أعلى المستقيم للعم ، والرأس والقرنان والجلد للخال ، والمعدة الرابعة للزوجة لتطبخها وتأكلها مع سيدات الأسرة ، والكليتان والمعدة الثالثة لأكبر الحاضرين سناً ، والمعدة الأولى للشبان من غير الأقرباء ، والقلب والرئتان لمتوسطى السن من غير الأقرباء ، والأنف والذقن لأكبر السيدات سناً ، والبنكرياس (حلويات البطن) للراعى .

معانى الطعام الاجتماعية :

لقد سبق أن أشرنا إلى المعانى الاجتماعية المرتبطة بالطعام ، ولا أدل على رسوخها من تبلورها فى الكلام الشعبى ، كنسبة بعض الأطعمة إلى الأولياء والاستعارة والتشبيه فى تسميتها ووصفها واستخدامها فى التعبيرات والأمثلة الشائعة :

ومن الأساليب الأولى نسبة الترمس إلى سيدنا الأنبابى ، والبطاطة إلى سيدى جابر ، والخس إلى المليجى ، وحب العزيز إلى السيد البدوى إلخ .

ومن الأساليب الأخرى إطلاق الصفات الحسنة والأسماء المحببة على الفواكه والحلوى : كغزل البنات وكعب الغزال ولقمة القاضى (وبراغيت) الست وعين الجمل والعنب البناتى والبلح الزغلول وحب العزيز واللديدة وعيش السراى والخد الجميل وكل واشكر وكوز العسل وقمر الدين وإصبع الست وسرة الهانم والشهد إلخ .

وكذلك سميت الأولاد بأسماء متخذة من المأكولات المستحسنة ، وبصفة خاصة فى البلاد حيث تقل الفواكه : فقد سمعنا الأسماء الآتية : خوخة ، موزة ،

تفاحة ، كوز العسل إلخ .

أما أوقع هذه التعبيرات وأجملها لما تنم عليه من ابتكار شاعرى تلقائى – فتلك التى يؤلفها بائعو الفواكه والخضر الجائلون ، ويمكن تقسيم أساليبهم إلى :

١ – وصف الصنف بصنف أثمن أو تفضيله عليه ، وهذا الأغلب :

« يا جمع العصارى يا خيار يالوبيا » .

« يا ورق العنب يا خبازى » .

« لوز يا ترمس » .

« أحلى من العسل يا بصل » .

« اللوز يا ملانة » .

« نواك لوز يابلح » .

« لا تين ولا عنب زيك يا ضانى يا أمهات » .

« حمام وزغاليل يا وِروِرْ »

« قشدة ياأرنبيط » .

« زبدة يا قلقاس » .

٢ – الوصف بما هو أثمن من غير المأكولات :

« زى الجواهر يا أوطة » .

« ورد يا طماطم » .

« يا جواهر يا عنب »

٣ – نسبتها إلى الأولياء .

« خسك يا مليجى » .

« مدد يا انبابى مدد (عن الترمس) .

٤ – إسناد صفات محببة إليه :

« يا حراق يا مسق عسل » .

« يا حلو يا ابن البحر يا ترمس » .

« الملاح ولا يربى الملاح إلا الصبايا الملاح » (عن الفراريج)

« الشفاء من الله يا حلبة » .

ولعل أدل من هذه التشبيهات كنز الأمثال الشعبية المبنية على الأكل أو الطهو . والأمثال الشعبية على حسب قول أحمد أمين[٧] نوع من الأدب يؤلفه الفلاح فى غيطه والعجوز فى دارها والعامل فى مصنعه والتاجر فى حانوته ، ليعبروا بها عن خبرتهم فى الحياة يقول الأستاذ أحمد أمين :

« أمثال كل أمة مصدر هام للمؤرخ والأخلاق والاجتماعى يستطيعون منها أن يعرفوا كثيراً من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة : فالعربى البدوى نجد أمثاله مشتقة من عيشته من جمال وخيام وأرض وجدب وخصب ومطر ونحو ذلك ، والذين يسكنون السواحل يشتقون أمثالهم من البحر والسفن والصيد والسمك ونحو ذلك ؛ كما نستطيع أن نفهم من الأمثال ما تثيره فى أنفسهم من معانٍ وما يستحسنه الشعب وما يستعجبه . . . وهناك أمثال تختلف فيها الأمم إما من حيث اختلاف التعبير ، وإما من حيث اختلاف البيئة ، وإما من حيث اختلاف الظروف الاجتماعية » .

ولنذكر من هذه التعبيرات : « فرخة بكشك » فى وصف من يتمتع بالتدليل والمحبة ، « والعيش والملح » للوفاء والعشرة الطيبة ، « وكانى مانى » ومعناها باللغة القبطية السمن والعسل » .

وقد جمعت الدكتورة سيريس ويصا واصف ٧٧٣ مثلا شعبيا[٨] تستخدم الطعام أو الطهور للتشبيه . وإننا إذ نذكر بعضاً منها نعتذر لضرورة ذكرها باللغة الدارجة :

لحسن المقابلة :

« لاقينى ولا تغدينى »

« دفينى ولا تعشينى » .

« لقمة هنية تغدى مية » .

للمحبة والوفاء :

« حبيبك يمضغ لك الظلط ، وعدوك يتمنى لك الغلط » .

« كُلْ عيش حبيبك تسرّه ، وكل عيش عدوك تضره » .

« ما تاكل عيش إلا لِلّيحبك » .

« الرغيف المدور للصاحب اللى يدوّر » .

الأكل بوصفه تبادلا اجتماعياً :

« أمى تطعمنى وتنكر طعّمتنى ، ومراة أبويا تطعمنى من غير طعام ! » .

« من ياكل وحده شرق وحده »

« إطعم الفم تستحى العين » .

« اللقمة تدفع النقمة » .

« فِضِل يحاتيه لما أكل مخه ! » .

للتظاهر والمفاخرة :

« لولاك يا كُمّى ما كلت يا فُمّى » .

« دقوا فى أهوانكم سمّعوا الجيران » .

« عرايا مقفقفين جابوا لعشاهم ياسمين » .
« اللى مافيش فى بيته طعام مالوش فيه مقام ! » .
« سكر الباب وصاح : عِيشْ يا جعان » .

للتعبير عن البخل :
« دخانك عمانا وطعامك ما جانا » !
« عيشك بحلالى يا خالى قال من سوء بختى يا ابن أختى »
« يفت على دخان »

فى القناعة والعزة :
« لقمة جارى ما تشبعّنى وعارها متّبعنى »
« نَىّ حدايا ولا مستوى حدا الناس » .
« يا بخت من أكل من قرصه ويؤانس بحسّه »

فى الجوع والشبع :
« آخر لقمة عجين » .
« حلال كلنا حرام كلنا » .

فى عدم المبالاة :
« خبز بلا إدام ويعزم الجيران » .
« مسّك القطة مفتاح الكرار » .
« صامت يوم واتمخطرت للعيد »

« من يأكل بالخمسة لازم يلطم بالعشرة » .
«كل واشرب وخَلِّ الدنيا تخرب » .
« تَاكُلْ خيره وتعبد غيره » .

إنكار الجميل :
« زى القطط ياكُلْ وينكر»
« أكل أكلهم وكشف سترهم » .
« أكل عيشكْ ونتف ريشكْ » .

الاستغلال :
« المتعود على أكلك لما يشوفك يضحك لك » .
« حطوا تقليتكم وأنا لقمة بجملتكم »

البيئة :

الوفرة : لم يعرف العالم القديم ما نتمتع به الآن من وسائل الاتصال السريع وطرائق حفظ المأكولات بالتبريد والتعليب ، ولذا فإن الغذاء كان محدداً بوفرته فى المكان والزمان ، ولم يستطع البدوى الراحل تناول منتجات الساحلىّ الصياد أو الزارع المستقر ، ولم يتيسر لساكن البلاد الشمالية أكل ثمار البلاد الاستوائية .

حجم الفريسة أو البهيمة : إنه من البداهة أن أسرة من ثلاثة أشخاص لا تستطيع أكل ثور فى يوم واحد ، الأمر الذى يعرض لحمه للتلف ، ولذا فإن حجم الفريسة أو البهيمة الكبيرة قصر أكلها على القصور حيث عددٌ قادر على استهلاكها قبل إصابتها بالتعفن وبقى هذا إلى أن احترفت مهنة القصابة ، أما صغار

القوم فكان عليهم الاعتماد على الطيور والأسماك والدواب الصغيرة . ومن نتائج الاعتماد على الصيد فى المجتمعات البدائية أن الصياد إذا ما حصل على فريسة كبيرة أكل هو وأهله حتى أتخموا ، ولم يعتادوا الوجبات المتوسطة الحجم المتكررة ، بل ظلوا بين تخمة ومخمصة حتى استقروا فى حياة زراعية أو مدنية .

الجو والمواسم والفصول : ومن أهم العوامل البيئية التى تؤثر على وفرة الطعام :

الجو : فإن الحنطة قليلة فى البلاد الحارة ، ويستعاض عنها بالدخن أوببذور أخرى ، والنخل مجهول شمال البحر المتوسط . ولايسع سكان المناطق البعيدة عن البحار الانتفاع بالسمك لصعوبة نقله دون إفساده . ومثال ذلك ما رواه المقريزى قال :

« وإذا كان فى الشتاء وأول الربيع – حُمل من بحر الملح سمك كثير ، فيصل إلى هذه المدينة (فسطاط) وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جداً فيباع فى القاهرة ، ويأكله أهله وأهل الفسطاط ، فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة[9] . (المقريزى ، الخطط : ١ ، ٣٣٩ طبعة بولاق) .

ومن ظواهر جهل سكان الواحات للسمك أنهم كانوا إلى عهد قريب يتخوفون من شكله الغريب ، كما أن سكان بعض مناطق وسط أفريقيا ينفرون منه .

الموسمية : وفى هذا المجال يؤدى تسلسل المواسم دوراً هاماً فى تكييف العادات الزراعية والغذائية : ففى البلاد الشمالية لانعدام العلف الطازج فى الشتاء تنحر البهائم فى الخريف ، وتحفظ لحومها بالتمليح والتدخين ، كما تحفظ فى الصحارى بالتجفيف ، لتؤكل فى ظروف الشتاء القاسية ، وتضاف إليها التوابل لتغطية روائحها العفنة ، وهذا أدى من جهة إلى تباين واضح بين غذاء الشتاء وغذاء الصيف ، وانتشار الأسقربوط وأمراض نقص الفيتامينات فى الشتاء ، ومن جهة أخرى إلى تهافت سكان البلاد الباردة على اقتناء التوابل ، الأمر الذى أدى إلى

تنافس بين البلاد التجارية والأساطيل ، ومحاولة الوصول إلى منابع هذه الثروة النباتية ، وإلى حروب ضارية منها الحرب التي سميت « حرب الفلفل » .

عوامل تاريخية : ظلت مأكولات تعد دارجةً اليوم مجهولةً لشعوب كثيرة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم تنتشر إلا نتيجة للحروب أو الهجرات : فالدجاج – على سبيل المثال – لم يعرفه قدامى المصريين إلا فى العصور المتأخرة إلى حد أن فرعون (تحتمس الثالث) عندما أهديت إليه ثلاث دجاجات فى خلال إحدى غزواته لبلاد بين النهرين عدّ هذا الحدث حرياً بالتسجيل فى حولياته . ولنذكر ثلاثة أحداث تاريخية كان لها آثار بالغة فى تطور الغذاء فى الشرق الأوسط :

أولها : حروب إسكندر المقدونى التى عرّفت العالم القديم منتجات آسيا عن طريق المؤرخين الذين اصطحبوه ، ومن هذه المنتجات قصب السكر الذى سموه « العشبة التى تنتج العسل دون معاونة النحل » .

ثانيها : انتشار الإسلام الذى جمع فى دين واحد وحضارة موحدة العالم المعروف قاطبة ، فأضاف إلى قوائم الأكل فواكه وأطعمة كالأرز والسكر والقهوة والبرتقال والمشمش . . إلخ .

ثالثها : هو اكتشاف أمريكا الذى أدخل أمثال الأذرة والبطاطس والطماطم والديكة الرومية .

الندرة المستجدة : وهى الندرة الناتجة : إما عن تغيرات فى المناخ أو عن المبالغة فى الاستهلاك ؛ كما حدث فى المناطق التى اضطرت سلطاتها إلى تحديد الصيد واحتجاز مساحات كبيرة « جنات » تسمح لتلك الحيوانات بالتكاثر فى سلام منعاً لانقراضها . وقد ورد فى نصوص أثينيوس الإغريقى(١٠) :

« قال فيلوخورس : إنه قد حدث أن عدد البقر قل فصدر أمرٌ يحرم هذا الحيوان للسماح بازدياد عدده » (٩ : ٣٧٥ : C)

ومن هذا جدب المكسيك قبل كولومبس بسبب زراعته دون دراسة ، وتحول مناطق واسعة وسط أمريكا إلى صحراء بعد إزالة غاباتها ، وتحول شمالى أفريقيا إلى رمال بعد الجفاف الذى طرأ عليها .

ومن الغريب أن الندرة قد تنتج ليس عن افتقار ، ولكن عن ثراء مستحدث : فمن أمثلة الندرة المستحدثة التى تدعو إلى التعجب ما عرف أخيراً عن مواجهة اليابان احتمال حدوث أزمة غذائية (الأهرام ، ٦ / ١ / ١٩٧٩ ص ٥) ، واليابان اليوم ثالثة قوة صناعية فى العالم ، وصاحبة عملة من أقوى العملات المتداولة ، ويزيد إنتاجها الصناعى على مجموع الإنتاج الصناعى لكل دول السوق الأوربية المشتركة !

هذا وقد غيرت الثورة التكنولوجية اليابانية الكثير من تقاليدها وملامحها الاقتصادية . فقد أصبح اليابانيون شعباً يعيش إلى حد كبير على الزلاليات الحيوانية بدلا من النشويات : فأخذ استهلاك الأرز – وهو الطعام الأساسى التقليدى – فى التناقص ، وزاد الدخل الفردى بنحو اثنى عشر ضعفاً بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦٠ ، وزاد التعداد من ٨٢ مليوناً عام ١٩٤٥ إلى نحو من ١١٢ مليوناً عام ١٩٧٥ ، فزاد استهلاك الأطعمة الغالية التى لا ينتجون أغلبها .

ومع تغيير العادات الغذائية طولبت الزراعة التى كانت تكاد تحقق الاكتفاء الذاتى بالتغيير والتجديد ، ولكن الصناعة اليابانية التهمت المزيد من الأراضى المزروعة ؛ كما راحت تشغل ملايين الفلاحين حتى لم يعد يعيش فى الريف سوى ١٢٪ من السكان ، نصفهم فقط لا يعملون بغير الزراعة والأعمال المرتبطة بها ، و ٨٥٪ منهم من الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تنتبه الحكومات المتعاقبة إلى الأزمة المتوقعة إلا عام ١٩٧٢ حين بدأت أزمة الغذاء العالمية ، فاكتشفت أن اليابان تنتج ٧٢٪ فقط من حاجاتها الغذائية

الأساسية ، و ٣٦٪ فقط من الأغذية الزلالية و ٥٤٪ من مجموعة السعرات الحرارية التى يحتاج إليها الشعب و ٤٪ من القمح و ١١٪ من الشعير و ٤٪ من فول الصويا .

علاوة على أنها ظلت الدولة الأولى فى العالم فى صيد الأسماك ، فإن معظم هذه الكمية تصطاد من المياه الإقليمية لدول أخرى ، إلا أن دول العالم تتجه إلى مد مياهها الإقليمية إلى مسافة ٢٠٠ ميل بحرى . وقد أضاف إلى هذه التهديدات ارتفاع الأسعار فى قفزات رهيبة وازدياد الطلب العالمى على الأغذية . وهكذا وضعت هذه البلاد الغنية فى مواجهة الإحساس بأن أمنها الغذائى مهدد حتى فى وقت السلم وحتى مع ثروتها التى تسمح لها باستيراد احتياجاتها ، بل – إلى حد ما – بسبب ثرائها الجديد .

تطور طرق الطهو : ويمكن التمثيل له بالتطور الذى طرأ على كيفية أكل الحبوب : فقد كانت تؤكل – أول الأمر – فجة وخضراء ، ثم بعد اختراع النار وبعد ابتكار الآنية الفخارية طبخت فى أنواع من العصيدة ، وأخيراً بعد قيام حضارة المدن طُحنت وغربلت وحولت إلى خبز غير مخمر ، ثم أضيفت لها الخمائر .

٥ – محاكاة الأنماط السائدة (الموضة) : ومن أمثلتها وأمثلة المحاكاة العمياء ما أصاب من تطورات الخبز الأسمر المجعول من دقيق يحوى نسبة مرتفعة من الردة فقد كان يعد فيما مضى خبزاً رخيصاً لا يصلح إلا لغير القادرين ، وتفاخر الأثرياء ببياض خبزهم . ثم مع تقدم معرفتنا للفيتامينات التى فى قشرة الحنطة ولتأثير الردة على الأمعاء – اعتبر الخبز الأسمر خبزاً مثالياً ، واتهم الخبز الأبيض بإحداث تسوس الأسنان ، والإمساك ، ولين العظام ، إلخ .

ومن الأمثلة المأثورة لآثار (الموضة) أن القواقع وأنواع المحار ظلت مهملة محتقرة فى أوربا قروناً طويلة ، وأصبحت الآن أفخر الأطعمة وأثمنها .

مناهج البحث فى الأنماط الغذائية :

لقد طرق الباحثون فى المجالات السابق ذكرها مناهج مختلفة نذكر منها :

المنهج البيئى الذى يبحث عن السببية التى تربط بين كل من البيئة والصحة والطعام ، وقد جنح الآخذون بهذا المنهج إلى أن الأنماط الغذائية إنما تحددها عوامل بيئية ، وهذا الرأى ليس بجديد ، وأول من سجله كان أبقراط فى القرن الخامس ق . م . وأكبر أبطاله فى قرننا الحالى هما هنتجتون [١١، ١٢] وسمبل [١٣، ١٤] .

ويتفرع عنه علم التبوؤ الذى يعنى بالضغوط المتبادلة بين الإنسان ومحيطه ، والذى يحاول معرفة أسرار التوازن بينهما ، ولنذكر مثلا لهذه الدراسات : نفوذ شبكة المواصلات داخل مجتمع محدد الرقعة على التركيب الاجتماعى للقبيلة ، وتأثير قائمة الطعام المتوفر على ابتكار الوسائل الرامية إلى الإكثار من الأطعمة الحيوانية أو الاقتصاد فى استهلاكها ، وقد تكون تلك الوسائل طقسية أو دينية .

المنهج الإقليمى : وهو – على نقيض المنهج البيئى الذى يقصر بحثه على المناطق الصغيرة – يميل إلى الاعتقاد بأن إنتاج الغذاء واختياره يتبعان تيارات عالمية واسعة .

علم التأريخ الثقافى : هو الذى يستمد المعلومات عن طريق دراسة الآثار واللغات والتاريخ والتقاليد المنقولة شفوياً ، ويشمل هذا العلم النظر فى تأثير المعتقدات الدينية [١٥، ١٦] أو – كما فعل سيمونز [١٧] – فى الحقائق التاريخية ، بحثاً عن أصول التحريمات الغذائية .

وقد جمع بعض الباحثين بين هذا المنهج والمنهج البيئى ، وأسفرت دراساتهم عن معلومات مفيدة فى شأن علاقة الثقافة والبيئة بظواهر مختلفة كأكل المواد الأرضية (الجيوفاجيا) ، وكتطور الغذاء مع تطور الزراعة وسياسات الاستيراد ،

وكتاريخ ورود الأذرة (الذرة الشامى) إلى العالم القديم : فقد زعم[١٨] أن هذا النبات وصل إلى أفريقيا قبل كولومبس ، على عكس الرأى الشائع وهو أنه جلبه كولومبس من أمريكا فى القرن السادس عشر ، وانتشر بسرعة من إسبانيا إلى إيطاليا وتركيا ومصر ، وتسبب فى ظهور مرض البلاجرا فى هذه البلاد .

المذهب الانتفاعى : Functionalism القائل : إن العادات الغذائية نشأت بقصد إشباع حاجات اجتماعية ، وإن الغذاء والأكل يرمزان إلى علاقات إنسانية ؛ لأنهما يثبتان عمليات إنتاج الطعام ومعالجته وتبادله ، ويقويان أواصر المجتمع .

والنظرية مبنية على العقيدة بأن البحث عن الطعام مرتبط باستعماله لأغراض حضرية أكثر من ارتباطه بأغراض التغذية ؛ فالأكل ليس خبزاً ولحماً وزاداً فحسب ، إن نواحيه غير الغذائية قد تفوق أحياناً قيمته الغذائية . وقد يؤدى دوراً هاماً - (كفنجال) القهوة - فى تسهيل العلاقات الإنسانية ، فالحاجة إليه (يومية) ويحضر ويُؤكَل جماعة ، وكل سماط حدث اجتماعى يوثق أواصر شديدة ، وقد يبلغ مجرد الجلوس إلى مائدة واحدة رسالة على شكل أوقع من تبليغها شفوياً أو كتابياً . وبالإضافة فإن الأكل والشرب أسهل ملذات الحياة معالجة فى المناسبات العامة ، وأثبت وأرخص طرائق التمتع بالحياة . وإذا كان الاشتراك فى الأكل يخلق زمالة قوية كان منطقياً أيضاً إقامة المآدب والولائم فى شكل متكلف لتحقيق التبادل الاجتماعى .

ويؤكد هذا المذهب الانتفاعى أن سبب فشل بعض البرامج الرامية إلى الإصلاح الغذائى يرجع إلى عدم أخذها فى الاعتبار دور الأكل من نواحيه غير الغذائية . وقد أدى تطبيق هذه الآراء إلى تفسير نفور بعض الشعوب من أغذية معينة ، والوصول إلى منطق تقاليد غذائية تبدو - أول وهلة - مضياعة :

ومن أغرب هذه التقاليد تهالك بعض قبائل الهنود الحمر في « كفاحات » سلمية ، مؤداها تحدى القبائل بعضها البعض فى تبادل الهدايا للمباهاة برفعة مكانتهم وسعة ثرواتهم ، ولإرهاق مدخرات منافسيهم ، ومن ثم وجوب تخزين جزء كبير من محصولاتهم للحيطة خوفاً من هذه التحديات ، وقد أدى هذا إلى مجاعات على حين كانت المخازن مكتظة بالغذاء(١٩) !

المنهج الحسابى : الذى يعتمد على قياسات متعددة الأبعاد لتحديد أنسب الغذاء لظروف اجتماعية معينة وأكثرها قبولا وأرفعها فى القيمة الغذائية وأقلها فى التكاليف .

الأسلوب الإكلينيكى : المبنى على معرفة الإنتاج المحلى وقيمته الغذائية واستخدام الفرد له . هذا إلى أن غذاء الشعوب العائزة قد لا يكون ناقصاً . ولنضرب مثالا لذلك : إن قبيلة الأوتومى بالمكسيك تحصل على الكالسيوم من الحجارة المستخدمة فى طحن الأذرة وعلى الفيتامينات من تخمير الصبار (٢٠) . إلخ وإن كميات كبيرة من الفيتامينات والأحماض الأمينية الأساسية تتكون عند اختمار الكشك ومشروب البوظة ، وتضيف إلى الغذاء صفات لا يحسبها مجرد وزنه (٢١)

الباب الثانى

المحرّمات فى مصر القديمة

إذا عرضنا الآن إلى المحرمات عبرنا العتبة الفاصلة بين المعقول وغير المعقول ، ودخلنا عالم الأساطير ، وإن كان البعض اليوم يفسر التحريم بمنطق القرن العشرين وبحصيلته العلمية . والحظر فى مصر القديمة لم يتناول إلا أنواعاً معدودة من الأطعمة ، واقتصر على مناطق محدودة ، أو مواسم دينية أو حقب تاريخية قصيرة .

كما أنه - على الأرجح - لم تمتثل له إلا الطبقات العليا وفئة الكهنة ، وهم ذوو المصلحة فى الحفاظ على طقوس الدين الرسمى وعبادة الآلهة الذين ينتمون إليها . أما الشعب - وبصفة خاصة الشعب المصرى - فلدأبه المعروف على الاحتجاج والمساءلة ولعدم مبالاته باعتبارات الطبقات العليا ، أو لعدم قدرته على اختيار طعامه - فمن المرجح أنه لم يأخذ - عامة - بهذه الأحكام .

وأهم المحرمات التى ذكرت هى المحرمات الحيوانية ، وقد لعبت أسطورة أوزيريس وإيزيس دوراً رئيسيًّا فى تحديدها .

قدس الحيوان أو نجسه فى مصر القديمة :

خضعت حياة المصرى فى عهد الفراعنة إلى مقتضيات دين دار حول أسطورة إنما تعبر - على حسب ما أفتى أهل العلم - تعبيراً روائياً جذاباً عن أحداث تاريخية طواها الزمن ونسيت ، اللهم إلا حين كان الشعب يردد فصول هذه الملحمة الآخذة :

روت هذه الأسطورة أن (أوزيريس) ملك مصر العادل بعد أن ابتكر الزراعة وعلم رعاياه فنونها - غادر بلاده ليجول فى أنحاء البسيطة حاملا رسالته للبشر أستاذاً ومعلماً ، وكان أخوه (ست) يحسده على ملكه ، فدبر له مكيدة ، ليتخلص منه ويرث عرشه : دعاه لدى عودته إلى مأدبة سخية ، وكان قد أمر بصنع تابوت فاخر على شكل أخيه ومقاسه ؛ ليتحف به - على حد قوله - من يوافقه حجماً وشكلا ، فأدخل فيه المدعوين واحداً واحداً ليختبرهم ، وما إن أدخل أخاه حتى أحكم إغلاق الصندوق وألقى به فى البحر ! فحزنت (إيزيس) أرمل (أوزيريس) على زوجها حزناً عظيماً ، وما فتئت تبحث عنه حتى وجدته ، بعد مغامرات طويلة ، فى بيبلوس (مدينة جبيل بلبنان) غير أن أمرها وصل إلى (ست) ، فبحث عن التابوت حتى كشف عنه ، وقطع جسد الشهيد إرباً إرباً وبعثر أشلاءه فى أقاليم الوادى . حشا عضو التذكير وألقى به فى اليم ، فابتلعه السمك . وعادت (إيزيس) تجوس خلال الديار لتجمع أشلاءه ، فوجدتها كلها ما عدا ذلك العضو الذى ابتلعه السمك . وعندما ترعرع (حور) ابنها من (أوزيريس) اختصم إلى القضاء الإلهى بهليوبولس (عين شمس) وغيرها ؛ ليسترد عرشه المغصوب ، ثم جرت بينه وبين (ست) ورهطه ، حروب ووقائع رددتها الأساطير ، وانتهت بانتصار (حور) على عمه .

ولهذه الملحمة ذيول وفصول ممتعة سنذكر منها بعض ما يتعلق بموضوعنا :

لقد ورد فى بردية (نو)[٢٢] أنّ الإله (رع) قال لـ (حور) ذات يوم : دعنى أنظر إلى عينك ، ثم قال : أنظر إلى هذا الخنزير الأسود ، فما إن وجه (حور) نظره إليه حتى أصيبت عينه ، وقد كان للخنزير شكلا اتخذه (ست) ليضرب عين (حور) فقال (رع) للآلهة : إن الخنزير رجس لـ (حور) ، ولكن الفوز قدّر (لحور) وإن كان الخنزير رجساً له .

وروى بلوتارخ وهو الذى سرد أكثر التفاصيل عن هذه الأحداث :[٢٣] أن القصة التى يرويها المصريون فى خلال الظرف الوحيد الذى يذبحون فيه خنزيراً ويأكلون منه عندما يكون القمر بدراً - هى كيف أن تيفون (وهو اسم ست عند الإغريق) ، وهو يطارد خنزيراً على ضوء بدر القمر - وجد الصندوق الخشبى الذى أودع جثمان أوزيريس ومزقه وبعثر أشلاءه ؛ كما ورد أن ست ورهطه ، بعد أن لاحقهم حور ألقى بهم فى النهر فى شكل حمير وخنازير وأفراس البحر ، وأن هذا هو السبب فى أنها تعد من الكائنات المنتمية إلى ست ، وتنال من المقت والنفور ما يناله هذا الإله من لدن أتباع أوزيريس .

ويذهب المؤرخون إلى أن هذه الأسطورة إنما هى نقل شاعرى للحروب التاريخية بين شعب جنوبى مصر وإلهه (أوزيريس) ، وبين شعب شمالى مصر وإلهه (ست) ، وهى الحروب التى انتهت بانتصار الجنوب وسيطرته على سائر القطر ، ومن ثم أدت إلى سيادة كهان أوزيريس ، اللهم إلا فى بقع محدودة كمدينة تانيس (وهى صا الحجر) حيث ظلت عبادته قائمة . تردد صدى هذه الأسطورة فى أرجاء جميع العالم المعروف ، ورُئى فيها رموزاً بالغة المعانى ، فصورت فى الخيال الجماعى انتصار الحضارة والزراعة على الفوضى والجدب ، واختفاء الثمار فى الشتاء ، ثم بعثها فى الربيع ، وظهرت أساطير مماثلة فى غير مصر : إما نقلا عن

مصر ، وإما لتشابه التفكير الإنساني ومخيلته .

فعند شعوب الشرق روى أن آدون ، وهو بعينه من سمّاه الإغريق (أدونيس) يمثل الربيع ، وكان يصور فى شكل فتى جميل من أبناء الملوك : روى أن أفروديت (وقيل إشتار) إلهة الحب هامت بحبه منذ ولادته ، فسلمته إلى (برسفون) إلهة غور الأرض لتربيه فأحبته (برسفون) ، وتنازعت الإلهتان إلى أن أنصفهما (زيوس) ، فحكم بمنحه نصف السنة لكل منهما بالتناوب ، غير أن (أفروديت) احتفظت به زمناً أطول من نصيبها ، فاغتاظت (برسفون) وأشعلت الغيرة فى قلب الإله (آريس) زوج (أفروديت) فتنكر (آريس) فى شكل خنزير ، وتربص به حتى لاقاه ذات يوم فى الصيد فى جبال لبنان ، فهاجمه وأسال دمه . فتحول الدم إلى زهرة الشقار الحمراء التى تغطى سفح جبال بيلوس (وهى جبيل بلبنان) فى الربيع ، ولوّن النهر الجارى فى هذه المنطقة ، والذى سمّى فيما بعد أدونيس ، على اسم البطل فلم يخرج (أدونيس) عن طبيعة (أوزيريس) الذى صارعه الشرير (ست) ، ورمزه الخنزير .

وفى محيط الأساطير التى مثلت نشأة الزراعة ، رُوى أن الإله (هادس) إله الجحيم وباطن الأرض هام بحب (برسفون) ابنة (ديمتر) إلهة الزراعة والأمومة ، فاختطفها إلى مملكته فى الأعماق المظلمة ، ومابرحت (ديمتر) تبحث عنها حتى لاقت تربتوليموس ابن الملك الذى ساعدها على استرداد ابنتها ، فوهبت له فن الزراعة . ثم بادر (تربتوليموس) بالجولان فى أنحاء العالم ليبث هذا العلم ، كما فعل (أوزيريس) من قبل ، فرمزت هذه الرواية - ومثلها مثل رواية أوزيريس - إلى اختفاء الخضرة فى الشتاء (اختفاء برسفون فى أعماق الأرض) ثم إلى ظهورها فى الربيع . وهذه الرواية لا ينقصها التلميح إلى الخنزير ؛ فقد كان (أوبوليوس) (Eubuleus) أخو (تربتوليموس) يرعى الخنازير فى إلوزيس

(Eleusis) وهى مـــــدينة (ديمتر) عندما انفجرت الأرض ، فابتلعت الخنازير فى الفجوة التى انفتحت ؛ كما أن الخنزير كان يشترك فى الطقوس الألوزية السرّية [1] ، وصكت النقود بصورها فى تلك المدينة ، واعتاد أتباع (ديمتر) غرس شىء من لحم الخنزير فى الأرض مع الثمار رجاء الحصول على حصاد غزير [٢٤] .

ولنعد إلى مصر : فقد كان عدد الحيوانات المحرمة فيها كبيراً ، أما أن تحريم البعض منها بات محصوراً فى مناطق ضيقة فإنما سببه أن حظ كل حيوان من الحصانة أو من النحر والوقوع ضحية للقصابين إنما هو حظ الإله الذى يرمز إليه من مدى السيادة وانتشار العبادة ، وقد قال هيردوت فى هذا الصدد [٢٥] :

« . . ولكن المصريين يقدسون كل الحيوانات التى فى بلادهم ، وإذا أردت أن أتكلم عن الأسباب التى من أجلها قدست الحيوانات - استطردت فى حديثى إلى الشئون الدينية التى أتجنب بوجه خاص الخوض فيها بالتفصيل . . وإذا قتل امرؤ أحدها عمداً كان جزاؤه الموت ، أما إذا قتله بغير قصد فيدفع الغرامة التى يقررها الكهنة . فأما عقوبة الموت فلا مفر منها لمن يقتل « أبا منجل » أو « باشعا » سواء ارتكب القتل عمداً أو بدون عمد (٢ : ٦٥) .

وقال هيردوت أيضاً : « ويمتنع الذين يملكون معبداً لزيوس الطيبى (آمون) ، وكل الذين فى ولاية طيبة - كلهم يمتنعون عن تضحية الأغنام ويضحون بالماعز ؛ (لأن المصريين يعبدون على حد سواء الآلهة نفسها ما عدا (إيزيس) وأوزيريس وهذا الأخير - على حد قولهم - هو (ديونسيس) إذ إن كلهم بغير استثناء يعبدون هذين الإلهين ، فأما الذين لديهم معبد لمنديس ، ثم أهل مقاطعة منديس -

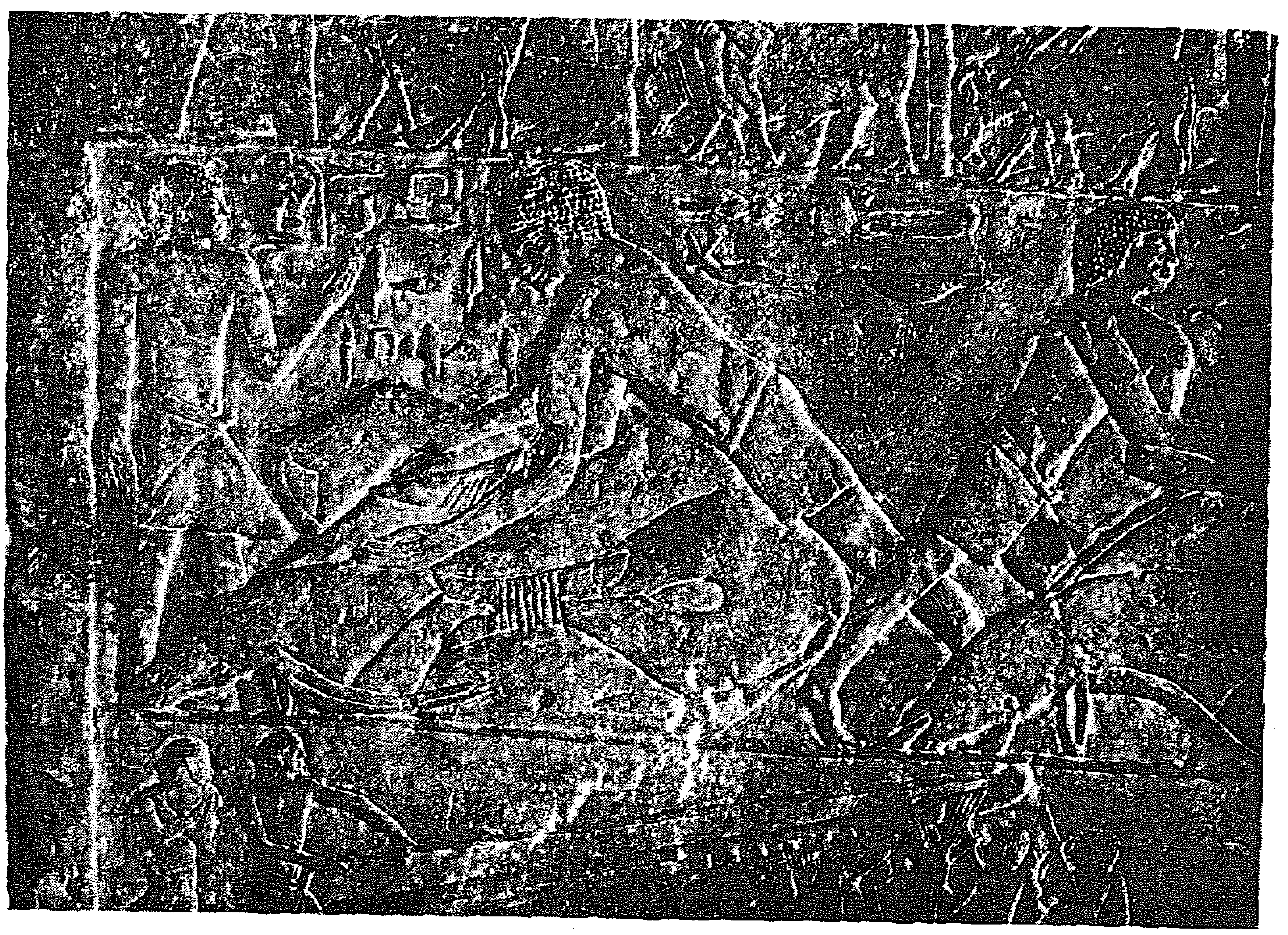
(١) ديانةسرية شاعت من القرن السادس ق . م . إلى القرن الميلادى ، وانتمى إليها كبار فلاسفة هذا العصر ، ولم يبح بأسرارها أحد منهم .

فلا يضحون بالماعز بل بالضأن .

ويقول أهل طيبة وأمثالهم ممن يضحون بالأغنام : إن هذه السنّة فرضت عليهم لهذا السبب : أراد « هيراكليس » أن يرى (زيوس) بأى حال ، ولكن هذا لم يرغب فى أن يراه (هيراكليس) ، وفى نهاية الأمر -لما استمر الأخير فى إلحاحه - فكر « زيوس » فيما يلى :

سلخ كبشاً وبعد أن قطع رأسه وضعه على وجهه ، ثم لبس الفرو ، وأظهر نفسه لهيراكليس بهذه الكيفية . لذلك يصنع المصريون تمثال (زيوس) وله وجه كبش وقد نقل الآمونيون ذلك عن المصريين . والآمونيون هاجروا من مصر والحبشة . ويتكلمون لغة وسطاً بين لغتى الشعبين ، ويبدو لى أن الاسم نفسه الذى اتخذه الآمونيون علَماً عليهم يشتق من ذلك ، لأن (زيوس) عند المصريين اسمه (آمون) ، ولذلك لا يضحى أهل طيبة بالكباش ، ولكنهم يقدسونها . ومع ذلك ففى يوم من أيام السنة ، يوم الاحتفال بعيد (زيوس) - يذبحون كبشا واحدا ويسلخونه ويغطون بجلده تمثال زيوس ، ثم يحضرون بالقرب منه تمثالا آخر لهيراكليس . . ثم يدفنونه فى قبر مقدس» (٢ : ٤٢) .

إن هذا النص الطويل يتطلب بعض التعليق ، وقد اقتبسناه من إيضاحات الدكتور أحمد بدوى ؛ فإن الماعز لم يكن له بين حيوان مصر المقدس قيمة ، وكان من قبيل (ست) ورهطه ، وإنما كان المصريون يجعلونه عند الضرورة الملحة بديلا عن الضأن ، وكانت التضحية به كرهاً وزهداً فيه ، ولكن المصريين كانوا يقدسون الكباش دون التيوس منذ أقدم العصور التاريخية ؛ لأنها جاءتهم وافدة مع النيل من قلب أفريقيا فربطوا بينها وبين النيل ، وهو لديهم مصدر الخصب والحياة ، وخالوه حارساً على منابع النيل التقليدية ، وزادوا على ذلك فخالوه بارئا للبشر يصورهم من صلصال كالفخار ، وكان الكبش أيضاً من حيوان (آمون) فهم صوروا هذا



(شكل ١) كاهن طبيب يراقب عملية النحر ويبدى إرشاداته . الدولة القديمة . سقارة

المعبود فى هيئة بشر له رأس كبش ، هذا وأكبر الظن أن الحيوان المقدس فى منديس كان كبشاً وإن كان الإغريق جعلوه تيساً : فى العصور المتأخرة استبدل أهل منديس الضأن بالماعز ، كما فعل أهل طيبة حيث جاء فى جبانتها ذكر الماعز بوصفه الروح المقدس لآمون .

البقر

لم يرد عن تحريم البقر وما إليه فى مصر القديمة إلا النزر اليسير ، وإنما ورد شىء من هذا فى كتابات الإغريق من بعد القرن السادس ق . م ، وقد خُص هذا التحريم أحياناً ببعض أجزاء الحيوان أياًّ كان نوعه ، وخُص البعض الآخر بالحيوان بأكمله إذا بدت عليه بعض السمات أحياناً أخرى وتزخر المقابر برسوم تمثل النحر تحت رقابة طبيب كهنى وإرشاداته (شكل ١)

أجزاء الحيوان : قال « أبو التاريخ » هيردوت عن الضحايا المقدمة للأرباب : « وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسدها ، ثم يمطرون على رأسها وافر اللعنات ! وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونه ، أما الذين ليس بينهم يونانيون فإنهم يلقون به فى النهر . أما عن اللعنات التى يتلونها على رءوس الضحايا فهذا مدلولها :

« إن كان هناك خطب سيحل بالمضحين أنفسهم أو بمصر كلها فلينزل على هذا الرأس . . » ووفقاً لهذه السنة لا يذوق أحد من المصريين مطلقاً رأس أى كائن حى (٢ : ٣٩)

ومن البين أن هذا النص يشير إلى أن الرأس كان يتحمل الخطايا أو ذنب ناحر الضحية ، كما أنه يدل بوضوح على أن سنة خَصّت أول أمرها - القرابين الدينية -

عُمِّمت فيما بعد حتى شملت أنواع الحيوان المأكولة كافة .

أما أسلوب التخلص من الأجزاء النجسة ، فيماثل الأسلوب الذى فرضته التوراة : لا تأكلوا جثة ، تعطيها الغريب الذى فى أبوابك ، فيأكلها أو يبيعها لأجنبي ؛ لأنك شعب قدس للرب إلهك . لا تطبخ جدياً بلبنه » (تثنية ١٤ : ٢١) .

ومع ذلك فإن موائد القربان على جدران المقابر لم تخل من رءوس الذبائح من البقر أو الطير ، وقد ذهب المؤرخون إلى أحد تفسيرين لهذا التناقض : إما أن الرأس فى هذه الرسوم يمثل حيواناً بأكمله ، كقولنا « مائة رأس غنم » ، وإما أن رأس الضحية كان كفارة[٢٦] .

الحيوان بأكمله : تشمل هذه الفئة كل حيوان يحمل على جسمه سيماء معينة ، ومنها العجول الحمراء التى ذكرها ديودور الصقلى (١ : ٤:٨٨ - ٥) وقال : إنها تضحى انتقاماً من ست وكيداً له ؛ لأن اللون الأحمر هو لونه . ولهذا التمييز أيضاً ما يماثله فى التوراة حيث كانت الأبقار الحمراء تتخذ « ذبائح خطية » . . . «قل هذه فريضة الشريعة التى أمر بها الرب قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لاعيب فيها لم يعل عليها نير فتعطونها لإلعازار الكاهن ، فتخرج إلى خارج المحلة وتذبح قدامه ويأخذ إلعازار الكاهن من دمها بإصبعه وينضح من دمها . . وتحرق أمام عينيه ويكون الكاهن نجساً إلى المساء . . إنها ذبيحة خطية (عدد : ١٩ : ٢ - ١٩) .

وكان التيقن من طهارة الحيوان يجرى فى دقة متناهية (شكل ٢) : « فإذا رأى الكاهن العبرانى شعرة سوداء واحدة فى جسد الثور عدّه نجساً . وقد أكد بلوتارخ[٢٧] إخضاع المصريين ضحاياهم لهذا الشرط ؛ إذ قال : « إن المصريين - لاعتقادهم أن تيفون كان أحمر البشرة - يخصصون للتضحية من أنعامهم النقية

ذات اللون الأحمر . . . ويعتقدون أن تقديم حيوان ذى شعرة سوداء أو بيضاء واحدة خطأ جسيم . . » . .

ثم كان الكاهن يسحب لسان الضحية ليرى : هل كان نقياً من علامات خاصة ستتحدث عنها فى فصل آخر[1] وينظر كذلك فى شعر الذيل (ليرى) أن نبته طبيعى . فإذا كان الثور طاهراً من كل الوجوه وضعت عليه علامة . . . أما من يضحى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت » (هيردوت ٢ : ٣٨) .

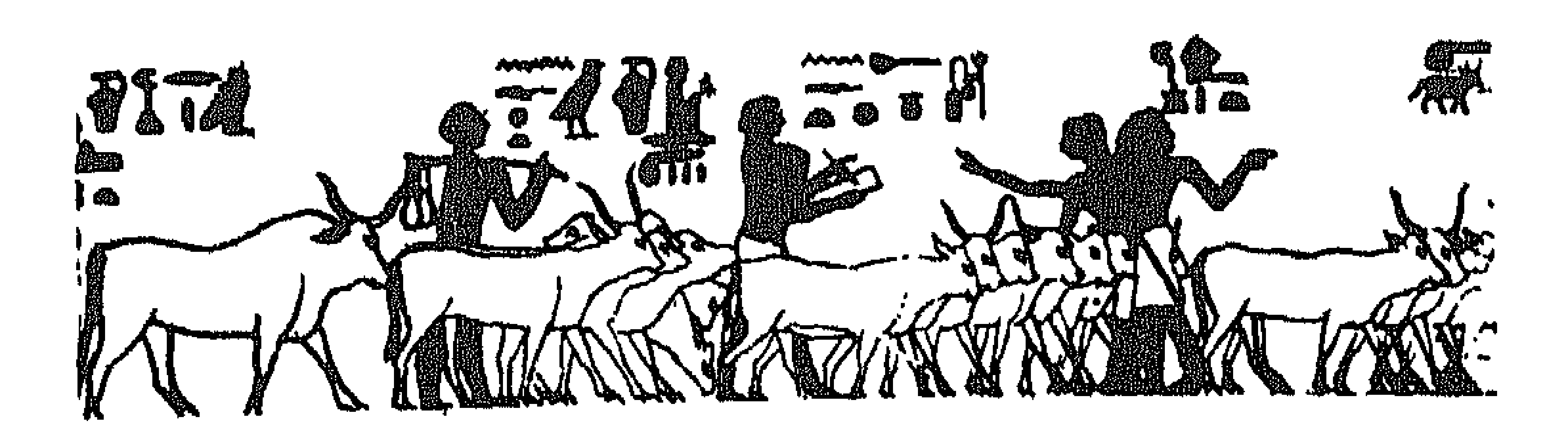
ومن هذه الفئة أيضاً كل ما اتسم بسمات العجول المؤلهة وهى عجول (آبيس) و (منيفيس) و (بوخيس) ، بالإضافة إلى عجول كثيرة قدست محلياً ولم تصل إلى منزلة الآلهة . وكان لكل عجل من هذه العجول ميزات ، كلون الفرو وخلو اللسان من بعض العلامات وما إلى هذا من صفات خارجية . ويلاحظ أن هذه السمات لم تكن من دلائل المرض ، وقد يكون أثراً من آثار معاشرة اليهود للمصريين فى وطنهم - أنهم عند رحيلهم إلى سيناء صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه (الخروج ٣ : ٣ - ٤)

ألـه المصريون عجل آبيس ، واعتقدوا أن أمه تلده ولادة بتوليةً بفعل نار من السماء (وقيل من القمر أيضا) ؛ كما زعموا أيضاً أن (حور) ولد بفعل نار أو برق أخصب أمه إيزيس[٢٨] .

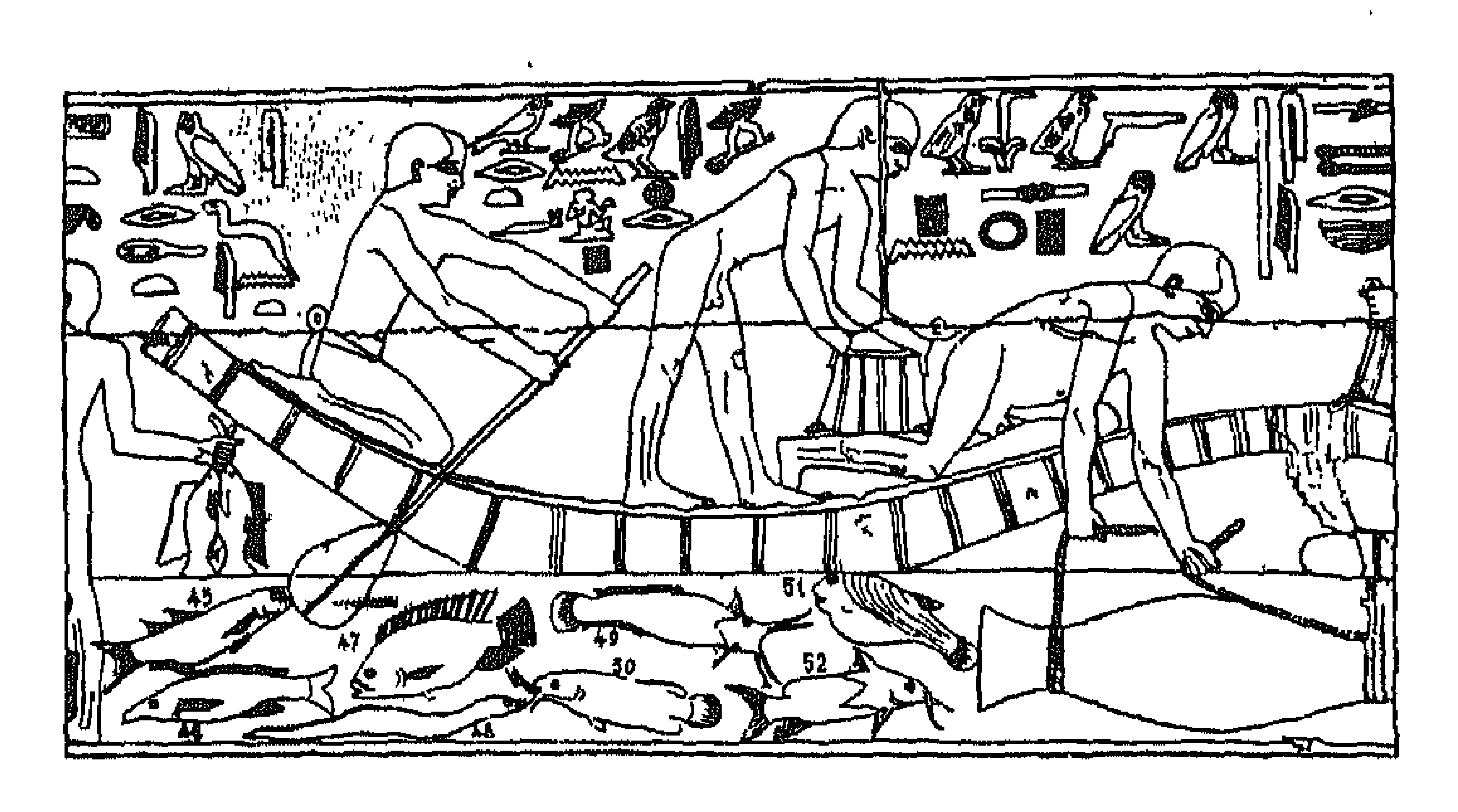
ولم يكن تقديس المصريين للعجول بالأمر الغريب ؛ فقد كانوا لإدراكهم أهمية فيض النيل فى إخصاب أرضهم يقدسون النهر ويعدونه فحل أرضهم ،

---

(١) تحدث عنها هيردوت فى الجزء الثالث من كتابه (٣ - ٨) . وهى خاصة بالعجل المقدس آبيس ، ومن المصادفات الطريفة أن تفحص اللسان يجرى الآن لمعرفة إصابة الحيوان بمرض السستسركوز .



(شكل ٢) فى وسط هذه الصورة الطبيب الكاتب (نحت) ممسكاً قلماً يعد الأبقار وربما يختار أصلحها . بنى حسن . الدولة المتوسطة



(شكل ٣) صيد الأسماك . وقد رسمت الأسماك فى دقة سمحت بمعرفة أنواعها المختلفة . منها البورى (رقم ٤٥) والبلطى (رقم ٤٧) والثعبان (رقم ٤٨) والشال (رقم ٥٢) وغيرها . سقارة . الدولة القديمة .

ويمثلونه فى هيئة آدمى له رأس فحل ، ويسمون فيضه « هبة الفحل » ، كما لقبوا الفحل بـ « خالق نفسه » لقوته المخصبة ، ووصفوا فرعون بـ « الفحل القوى » ، كما كان العرب يقولون : « فلان كبش قومه »[٢٩] .

وربط المؤرخون أيضاً بين أبيس و (أوزيريس) ، لعلاقة الثور بالزراعة ، ولعقيدتهم بأن الزراعة من مبتكرات (أوزيريس) ، وسجل ديودور الصقلى هذا التفسير حيث قال : « إن الثيران المقدسة - وإنى أعنى هنا عجلى أبيس ومنيفيس - تكرم مثل الآلهة ، على حسب ما أمر أوزيريس ؛ لأن صيت الذين كشفوا عن ثمار الأرض - انتقل إلى الأجيال اللاحقة وإلى الأبد بجهود هذه الحيوانات (١ ، ٨ ، ٤) ، وتجاوزوا هذا إلى حد القول بأن روح (أوزيريس) تقمصت - بعد وفاته - ثوراً ، وأنه واصل بعد ذلك التقمص من ثور إلى ابنه وأن (إيزيس) أودعت أشلاء (أوزيريس) - بعد أن صرعه (ست) - صندوقاً من الخشب مصنوعا على شكل ثور (ديودور ١ : ٨ : ٤ - ٥) وروى بلوتارخ أن الكهان أكدوا له أن (أوزيريس) هو (آبيس) ، وأن ديونيزيوس - (أوزيريس) كان أول من استورد الثيران من الهند إلىَ مصر ، وكان عددها اثنين ، واسم أحدهما (آبيس)[٣٠] .

أما عجل (منيفيس) الذى تركزت عبادته فى عين شمس فقد جمع بينه وبين الإله (رع - أتوم) من جهة ، وبينه وبين عبادة (أوزيريس) من جهة أخرى[٣١] ، وذهب البعض إلى أنه أبو عجل (آبيس) ، وقدس للشمس فى حين أن (آبيس) قدس للقمر ، وقد وردت قصة فحواها أن الملك (بوخورس) أراد ذات يوم إذلال المصريين ، فأرسل بقراً وحشيًّا ضد (منيفيس) ليقضي عليه ، غير أن رجل البقر زلت فخر صريعا على شجرة لبخ ، وانكسر قرنه ، فهاجمه (منيفيس) عندئذ وجرحه ، وزاد كره المصريين لبوخورس من جراء هذا

الحدث (٣٢)

وثالث الفحول المؤلهة كان عجل (بوخيس) الذى عدّ تجسيماً للإله (منت) ، وكان مقدساً للشمس ، وعبادته فى أرمنت ، حيث وجدت مقابره .

البقرة : قال هيردوت : ويضحى المصريون كلهم بالثيران والعجول الطاهرة ، ولا يباح لهم أن ينحروا الأبقار فهى مقدسة لإيزيس ، وتمثال إيزيس فى الواقع على شكل امرأة وله قرنان ؛ كما يصور اليونانيون (إيو) . والمصريون جميعا - بغير استثناء - يخصون الأبقار من بين الماشية كلها بأكبر تعظيم ، ولهذا السبب لا يقبّل مصرى أو مصرية يونانياً على الشفاه ، ولا يستعمل سكين يونانىٍّ أو سفافيده أو قدره ، ولا يذوق لحم ثور طاهر إذا قطع بسكين يونانية (٢ : ٤١) ، وهذا النص ينفى أن منبع التحريم خشية العدوى ؛ كما أنه يشبه رواية الوليمة التى أولمها يوسف لإخوته وللمصريين :

« . . . فقدموا له وحده (الطعام) ، ولهم وحدهم (إخوته) ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين» (سفر التكوين ٤٣ : ٣٢) .

وقال هيردوت أيضاً - وهو يتحدث عن واحة سيوة ، ويؤكد أنها جزء من مصر « إن إجابة وحى آمون لتؤكد أن مصر عظيمة الامتداد ؛ كما أوضحت هذه الإجابة . . »

حدث أن أهل مدينتى « ماريا وآبيس[1] » الذين يسكنون أجزاءها التى تتاخم ليبيا كانوا يعتبرون أنفسهم ليبيين لا مصريين . (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به ، ورغبوا فى أن يأكلوا لحم البقر ، وأرسلوا إلى آمون

(١) ماريا هى حالياً : مريوط ، وآبيس قيل : إنها على مسيرة خمسة أيام من واحة سيوة فى الصحراء الغربية .

مدعين أن ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين المصريين ؛ لأنهم يسكنون خارج الدلتا ، وأن ليست بينهم (وبين المصريين) صلة فى اللغة ، وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام . . . . » (٢ : ١٨)

وأكد (بورفيرى) هذا الرأى فى القرن الثالث الميلادى ؛ إذ قال : « إن المصريين والفينيقيين ليفضلون أكل لحم الآدميين على أكل لحم البقر ! (٢ : ١١) .

ويبدو تسلل الأساطير من مصر إلى اليونان واضحاً إذا ما قارنا بين ما يخص منها البقر ، وبين رواية (إيو) الإغريقية . كانت (إيو) ابنة أول ملوك (أرجوس) شابة جميلة هام الإله (زيوس) بحبها ، فحملت بلمسة منه ، فحقدت عليها زوجته (هيرا) وخشى عليها (زيوس) من حسدها ، فحولها إلى بقرة ، وهربت (إيو) إلى مصر حيث أعاد إليها (زيوس) شكلها الآدمى ، فتزوجت ملك مصر ، وأنجبت (إبافوس) الذى حملته من (زيوس) ، ومعنى هذا الاسم : وليد اللمسة . وأضاف الإغريق أن (إبا فوس) هذا هو عجل (آبيس) . ثم إن الإغريق رسموا (إيو) فى شكل شابة على هامتها قرنا بقرة ، وهى الصورة التى رسمها المصريون لإيزيس – حتحور .

هذه هى الأدلة والنصوص التى تؤكد تحريم أكل بعض فئات البقر أو بعض أجزائها . ومع ذلك ، فهناك نصوص كثيرة تشير إلى السماح بنحر البقر على موائد قرابين الآلهة ، إننا إزاء التناقض بين أقوال المؤرخين من جهة ، وبين هذه النصوص وما نراه مرسوماً على جدران المقابر والمعابد من جهة أخرى – يحق لنا أن نتساءل بما أن تحريم أكل الرأس وإناث البقر وحاملى بعض السمات المعينة لم يُذكر إلا فى مؤلفات مؤرخى العهود المتأخرة فهل لنا أن نستنتج أن هذه كانت شائعة منذ عهد الأسر الأولى وإنما كتم أمرها لسرية الشعائر الدينية ؟ هل خلط المؤرخون بين

محرمات اليهود ومحرمات المصريين ؟ هل استجدت هذه التحريمات فى العهود المتأخرة ؟ وفى هذه الحال ما الأحداث الداخلية أو التأثيرات الخارجية التى طرأت على مصر فأدخلت هذه البدع ؟ ثم هل كان التحريم مقصورا على ما يقدم للآلهة ؟ وهل كان بعض المصريين أو كلهم يتجنبون فعلا لحم الرأس فى كل ظروف حياتهم ؟

وختاماً نعود فنقول : إن مميزات التحريم لم تكن من بينها واحدة تشير إلى مرض مُعْدٍ أو إلى ضرٍ يلحق بآكلى هذه اللحوم .

السمك

روى بعض المؤرخين أن السمك كان يعدّ نجساً فى مصر القديمة ، ولكننا نحار فى أمر هذه الرواية حين نستمع أغنية رائجة وردت على لسان صبية خرجت من الماء وقميصها قد التصق بجسمها وهى تغرى حبيبها بسمكة تمسكها بيدها . كما أن حيرة مماثلة تنتابنا إزاء ثروة الرسوم التى تمثل صيد السمك (شكل ٣) ، وحفظه ، وطهوه واستخراج البطارخ (شكل ٤) على جدران المقابر أو على النصوص التى تذكر ما كان يقدم منه للآلهة قرابين ، أو للجند جرايات ، وعلى نقوش المعابد ، كذلك النقش الذى أمر (أمنحتب) بنحته على معبده الجنزى بطيبة على صورة إله السمك والدواجن [٣٣] إننا إذا اعتمدنا على تلك الرسوم استطعنا الجزم بأن الشعب المصرى كان ينال منها قسطاً وافراً .

غير أن المؤرخين القدامى ذكروا بعض استثناءات خاصة بالعاملين الرئيسين اللذين حددا شكل حياة المصريين عامة ، ومأكلهم خاصة ، وهما : الأول النزاع الشبيه بالتاريخى الذى نشب بين أتباع (حور) الجنوبيين وبين أنصار (ست)



(شكل ٤) السماكون يشقون السمك لتجفيفه فى الشمس ، وينتزعون منه البطارخ وهو مرسوم منتثراً وسط الأسماك على شكل أسطوانات مستديرة الأطراف .

الشماليين ، وهو الذى أورث تحريمات توازى ما خص الخنزير منها ، والآخر دخول شعوب من الغرب ومن الجنوب أملت عقائدها على المناطق التى احتلتها .

السمك وعلاقته بأسطورة أوزيرس :

لقد أوضح بلوتارخ (٣٤) رأيه فى سبب تحريم بعض الأسماك فى مصر القديمة ؛ إذ قال : «إن الجزء الوحيد من أشلاء جثمان (أوزيرس) الذى لم تعثر عليه (إيزيس) هو عضو التذكير ، وهذا لأنه ألقى به فى النهر حيث التهمه اللبدوتس (البنّى lepidotus,?barbus bynni) والفاغرس (كلب البحر Phagrus,? hydrocyon Forskalii) والأكسيرنكس (وأبو بويز

(Oxyrhynchus Soles) ، وهـذه هى الأسماك التى حرص المصريون على الامتناع عنها :

أما أبو بويز فإنه كان يعبد فى مدينة (أكسيرنكس) وهى البهنسا ، وكان يعّد من مقدسات (ست) لاشتراكه فى التهام عضو (أوزيريس) ، ونتج عن ذلك أن تابعى (ست) اجتنبوه عن احترام وتكريم وتابعى (أوزيريس) عن كره ونفور .

وقد وصف بلوتارخ عنف المشاعر نحو هذه السمكة حين روى أن أهل (أكسيرنكس) للانتقام من أهل بلدة (كينوبولس = بلدة الكلب) الذين اعتادوا أكل السمكة المقدسة لهم - قتلوا كلباً ذات يوم وأكلوه ، فنشبت من جراء ذلك حرب فاتكة بينهما .

وقد سجل آيليان (١٠ : ٤٦) عادات استوحاها صيادو أسماك هذه المنطقة من العقائد نفسها ، وهى تفحص شباكهم بعد سحبها من الماء للتيقن من خلوها من هذه الأسماك ، وتفضيلهم سحب شباك فارغة على أكبر صيدة إذا حوت إحداها ، وعدم أكل ما يصاد بالصنانير خوفا من ان تكون صنارة منها خدشت إحدى هذه الأسماك فى الماء .

ولم تولد هذه الروايات فى مخيلات رواتها ؛ إذا إنه وجد نص يمين كان يطلب التوقيع عليه إلى صيادى المنطقة ، يقسمون بموجبه : إنهم لم يصطادوا ألبتة سمكتى اللبدوتس أو الأكسيرنكس[٣٥] .

ومع ذلك فقد رُسِم صيد هذه السمكة مع أسماك اخرى على جدران كل مقابر الدولة القديمة . وقد يكون لهذا التناقض أسباب مختلفة : فإما أن رواية العداء لهذا السمك كانت ابتكاراً متأخراً أو إضافة إلى الأسطورة القديمة ، وإما أن يكون لهذه الرسوم قيمة محلية محدودة فحسب ، وإما أنه لم تكن أية علاقة بين تمثيل هذه السمكة وأكلها .

والفاغرس : قدّسه أهل أسوان فى الحقب المتأخرة ، ويستنبط من أقوال مؤرخى الإغريق انفصام الشعور نحوه : فقد قال آيليان (١٩ : ١٠) : إن هذه السمكة كانت تسبق فيضان النيل وتبشر به ، فى حين أن بلوتارخ قال كما أسلفنا : إنها إحدى الأسماك التى تغذت بعضو (أوزيريس) وإن المصريين يتجنبونها .

أسماك أخرى مقدسة : وقد ألّهت بعض المدن أنواعاً أخرى من السمك دون أن يعثر على أى دليل على تحريمها .

وأخيراً لنذكر الشعائر الدينية التى كانت تقام كل سنة ابتهاجاً بانتهاء مدة ترمّل إيزيس فى مدينة إدفو حيث نشبت – تبعاً للرواية – المعركة الفاصلة بين (حور) و (ست) ، وكانت الطقوس تقضى بتقطيع آلاف من الأسماك ، ثم النزوح إلى الحقول المجاورة لسحقها تحت الأقدام !

النفور من السمك نتيجة للاحتلال الأجنبى :

عمت الفوضى البلاد بعد انتهاء عصر المملكة القديمة فى غضون حقبة يطلق عليها المؤرخون « المرحلة الانتقالية الأولى » وأنهكت غزوات القبائل الليبية فى خلالها قرى الدلتا ، واحتلت بعضها ، وقد وصفت (تنبؤات نفررهو) بؤس حال البلاد نتيجة لهذه الغزوات ، وذكرت ضمن ما ذكرت « تخريب البرك المتألقة بالسمك والطيور » وعلى العكس ، ازدرت نصوص أخرى السمك والصيادين ، وإلى القارئ بعضها :

« إن الصياد أسوأ حالا من رائد أية مهنة أخرى » [٣٦] .

وإليك نص آخر « تأمل أن اسمى ممقوت أكثر من صيد السمك ، أكثر من رائحة الصيادين ومن نتن الشواطئ بعد أن انتهوا من الصيد » [٣٧] .

كما أن نصوصاً أخرى قالت – تكريها للسمك : إن الجثث يلقى بها فى النهر

حيث يتغذى منها[٣٨].

وبعد الغزوات الليبية بزهاء ١٥٠٠ سنة فتح مصر شعبٌ من الجنوب بقيادة (بيعانخى) كان ينجّس السمك ويعد أكله كفراً ، يشهد بذلك خطاب وجه إليه « إن هؤلاء الملوك والأمراء من الشمال (أى المصريين) الذين حضروا ليشاهدوا روعة جلالتك لم يسمح لهم بدخول دار الملك ؛ لأنهم نجسون ويأكلون السمك ، أما الملك (نملوت) فقد سُمح له بالدخول لأنه طاهر ولم يأكل السمك ألبتة[٣٩].

وقد كان هيردوت عندما زار مصر نحواً من ثلثمائة سنة بعد فتح بيعانخى من أوائل الإغريق الذين سجلوا تجنب كهان مصر للسمك ، قال : « إن الطعام المقدس يطهى لهم ويحضر لكل منهم كل يوم لحم البقر والإوز بكثرة . . . ونبيذ العنب كذلك ، ولا يسمح لهم بأكل السمك » (٢ : ٣٧)

ومن الجائز أن يكون تحريم السمك - وبصورة خاصة بين الكهان - بدعة مستحدثة مردّها فى هذا العصر إلى نفوذ بيعانخى الفاتح ؛ كما أنه من المحتمل أن تكون هذه البدعة أضافت ثقلها إلى رواسب العقائد الأوزيرية وتبلورت فى التحريم الذى سجله هيردوت .

ومن الأمور التى قد تكون ذات مغزى أن واحدة من هذه التحريمات لم تتعرض للأسماك السامة أو للأسماك الحاملة للديدان كالهتروفيس الذى ينقله البورى ، أو البوثريوكفالس الذى يسبب الأنيميا الخبيثة . . !

مخلفات تحريم السمك :

لم يبق من هذه التحريمات شيء حالياً سوى تحريم التوراة لما ليست له زعانف ولا خرشف ، كما سنرى فيما بعد .

غير أن خرافة شاعت شرقاً وغرباً حتى فى أمريكا ، وهى عدم جواز الجمع

صحياً بين السمك ومنتجات اللبن فى وجبة واحدة ، وهى التى تبلورت فى المثل المصرى الشائع « سمك ولبن وتمر هندى » التى تطلق على ما يدنو من الخبَل أو ينافى العقل والمنطق .

ويرى البعض أن فكرة عدم تجانس السمك واللبن إنما هى انعكاس لتناقض حضارتين مختلفتين : حضارة قاطن الشواطئ الذى يعرف السمك ويقبل عليه ، وحضارة الرعاة وبدو الصحارى الذين يجهلون من السمك حتى شكله ويعتمدون على الألبان واللحوم .

لا ندرى : أين نشأت هذه العقيدة التى لا يبررها علم ولا خبرة ، فهى لم تكن من عقائد المصريين كما نعرفها ، ولم ترد عند الإغريق الذين كانوا يتلذذون بأكل السمك المطهو بالجبن(٤٠) وقد وردت فى الطب النبوى(٤١) وقد تكون نشأتها فى الهند على حسب قول ابن سينا : «وقد قال أصحاب التجارب من أهل الهند وغيرهم : إنه لا ينبغى أن يؤكل لبن مع الحموضات ولا لبن مع السمك فإنهما يورثان أمراضاً مزمنة منها الجذام» (٤٢) .

خرافات خاصة باستعمال السمك فى العلاج :

واقتحمت الخرافات الخاصة بالسمك مجال العلاج : فقد ذكرت بردية إبرز (رقم ٤٠٥) علاج ضعف النظر بصفراء السمك من نوع (أبدو) . وربما تكون العلة فى هذا هى العقيدة بأن هذه السمكة المعينة كانت ترشد زورق الإله (رع) فى ظلمات العالم الخفى ، وذكر كذلك علاج سحابة العين بصفراء السلحفاة (رقم ٣٤٧) وفى مقابل هذه الوصفة نجد رواية الملاك روفائيل الذى أرشد طوبيا إلى علاج عين والده المصابة بالسحابة بدهنها بصفراء سمكة اصطادها (طوبيا ١١ : ٦ - ١٤) .

ومما يشير أيضاً إلى علاقة هذه القصة بمصر أنها استطردت ، وأضافت أن طوبيا بخّر زوجته بكبد السمكة فطرد منها عفريتاً فرّ هارباً إلى مصر ! وسفر طوبيا يشك البعض فى أصالته ، والأرجح أنه صنف – على الأكثر – فى القرن الثالث ق . م : أى فى عصر كانت فيه تقاليد مصر القديمة حية .

ولننظر الآن إلى وصفتين من (القانون) فحواهما استعمال جلد سمك معروف بسيفيانوس لإزالة البياض من عيون المواشى (٤٣) وصفراء الدب والغراب والحجل والكركى والضبع والماعز لإزالة ظلمة العين (٤٤) .

ثم لننظر أيضاً إلى هذه النبذة من القانون ٤٣ : «الرعاد الحى إذا قرب من رأس المصدوع أخدره عن الحس بالصداع » هل يجوز وضعها وضع المقارنة بعلاج الصداع النصفى بدهك ناحية الرأس المصابة برأس سمكة مقلية (إبرز رقم ٢٥٠) أم هل كان ابن سينا يقصد الهزّة الكهربية على غرار علاج الحالات النفسية الحديث بالصدمة الكهربية ؟ وفى مقابل هذا نوّه جالينوس إلى ملاحظة تثير الدهشة : هى أن الذين يلمسون السمك الرعاد ينعدم حسّهم ، وقد يصل بهم الأمر إلى السبات والغيبوبة (٤٥) .

الخنزير

تردد تعليل تحريم الخنزير ، وهو تحريم شاع فى أكثر من بلد منذ فجر التاريخ ، بإدراك الإنسان علاقة الإصابة بالتركينا بأكل لحمه ، وإننا نعترف بصعوبة قبول هذا التعليل : ذلك أنّ من الصعب التصديق بأن الشعوب البدائية التى أحاطت الجثث بالإجلال والرهبة ، ونهت عن العبث بها أو عن تشريحها -- وصلت إلى هذه المعرفة التى لم يصل إليها الطب إلا منذ مائة سنة ، ونقدم للقارئ بعض العناصر التى بنّينا عليها شكوكنا !

١ - إن الأديان والتقاليد لم تتعرض قط لهذا العديد من تلك الحيوانات الأخرى التى تنقل أمراضاً ، وإن كانت العلاقة بينها أوضح من علاقة الخنزير بالتركينا ، ونذكر منها درن المواشى ، وإصابة السمك بالهتروفس أو الديبوثريوكفالس .

٢ - ثم إنها لم تتعرض للحوم الحيوانات السامة بطبيعتها مثل بعض الأسماك ، ولا لأمور عرفها القدامى كالتسمم من أكل السمان الذى حدث للعبرانيين فى سيناء (عدد ١١ : ٣٢ : ٣٣) فى شكل جماعى ، وذكرت حالات منه فى فرنسا واليونان وغيرهما ، وعُزى إلى السمان أنه يحبّ أكل بذور الخربق ولا يتأذى منه هذا فى حين أن الآثار التى تتبقى من هذا السمّ فى لحمه قد تؤدى بحياة آكلية[٤٦] ، ومن العرب ذكر ابن سينا وابن ميمون تعرض آكلى السمان للتسمم وإن أنكر ابن سينا علاقته بالخربق ؛ إذ قال : « أكل لحمه يخاف منه السدد والتشنج ، لا لأنه يأكل الخربق فقط ، بل لأن فى جوهره هذه القوة ، وإذا ظن أن اغتذاءه بالخربق فهو لمشاكلة المزاج (القانون ، كتاب فى الأدوية المفردة ، حرف السين) .

٣ - وقد كاد النقاش أن ينحصر حول الخنزير ، فما بال المؤرخين يهملون عشرات المحرمات لدى الشعوب المختلفة : كالبقر فى الهند والجمال والأرانب ، والقريدس (الروبيان أو الجمبرى) عند اليهود ، إلخ .

٤ - وقد خلت الأديان من أى تحريم للنباتات السامة التى تفتك بآكليها فتكاً أسرع وأمضى من فتك أى لحم موبوء اللهم إلا نباتات قليلة لا يمت تحريمها إلى الصحة بصلة ، وهذا ما ستتناوله فى باب لاحق .

ولذا يجدر بنا البحث عن أسباب التحريم عامة ، ومن ثم عن أسباب تحريم الخنزير بصورة خاصة فى أركان أخرى من أركان الفكر الإنسانى مستعينين بتاريخ هذا التحريم وبتطوره على مرّ القرون :

الخنزير فى مصر فى العهد السابق لعهد الأسر (قبل حوالى ٣٠٠٠ق.م) :

فى الوجه البحرى : وجدت بقايا الخنازير بغزارة فى مواقع فى حلوان والفيوم ترجع إلى عهد وسيط بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى المتوسط [٤٧ ، ٤٨] وبما أن احتمال تدجين هذا الحيوان فى هذا العهد القديم أمر مشكوك فيه – يرجح أن تكون هذه العظام من بقايا أنواع برية . وفى مرمدا بنى سلامة[٤٩] (٥,٠٠٠) ق . م ، دفعت غزارة العظام التى وجدها المنقبون إلى اعتبار أكل الخنزير إحدى الصفات المميزة لحضارة هذا العهد . واستمر شيوع تربية الخنازير وأكل لحمها فى سائر الدلتا (العمرى ، المعادى) من الألفية الخامسة حتى عصر توحيد نصفى القطر الشمالى والجنوبى : أى حتى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م .

أما فى الصعيد : فقد كشف عن بعض بقايا الخنزير فى أرمنت والبدارى وأبيدوس ، غير أن الاختلاف الصارخ بين كثرتها فى الشمال وضآلتها فى الجنوب يشير إلى تركيز تربية هذا الحيوان وأكله فى الشمال .

الخنزير فى مصر بعد التوحيد :

تدل عمليات التنقيب على انخفاض كبير فى استهلاك هذا الحيوان طرأ بعد أن سيطر الجنوبيون على الشماليين ومن التعليلات التى فسرت بها هذه الظاهرة اقتباس الشمال عادات الجنوب التى إنما عكست عقائده وأساطيره فإذا قبلنا قصة الصراع بين (أوزيريس) وابنه (حور) وبين (ست) ، على أنها رواية مقنعة للحروب التى نشبت بين نصفى الوادى وانتهت بانتصار أهل الجنوب أتباع (أوزيريس) وجدنا فى اختلاف النظرتين إلى الخنزير ما يلقى ضوءاً على أسباب انحطاطه إلى منزلة

دينية حطيطة ، وإنهاء سيطرته على موائد الشمال .

أما فى عصر **الدولة الوسطى** (٢٢٠٠ - ١٥٨٠ ق . م) فالنصوص خالية من أية إشارة إلى التحريم ، ولا تعود دلائل النفور منه إلا فى عهد الأسرة التاسعة عشرة : أى فى عصر **الدولة الحديثة** ؛ فقد وردت فى قبور (حور محب) و (سيتى الأول) و (رمسيس السادس) كتابات ونقوش تعكس عقائد أوزيرية ، وتهكم على (ست) والخنازير ، كرسم يبين (أوزيريس) جالساً أمام زورق حيث يرى الإله (تحوت) ، إله العلم والمعرفة يضرب خنزيراً (شكل ٥) وقباله نص معاد لـ (ست) ولهذا الحيوان .

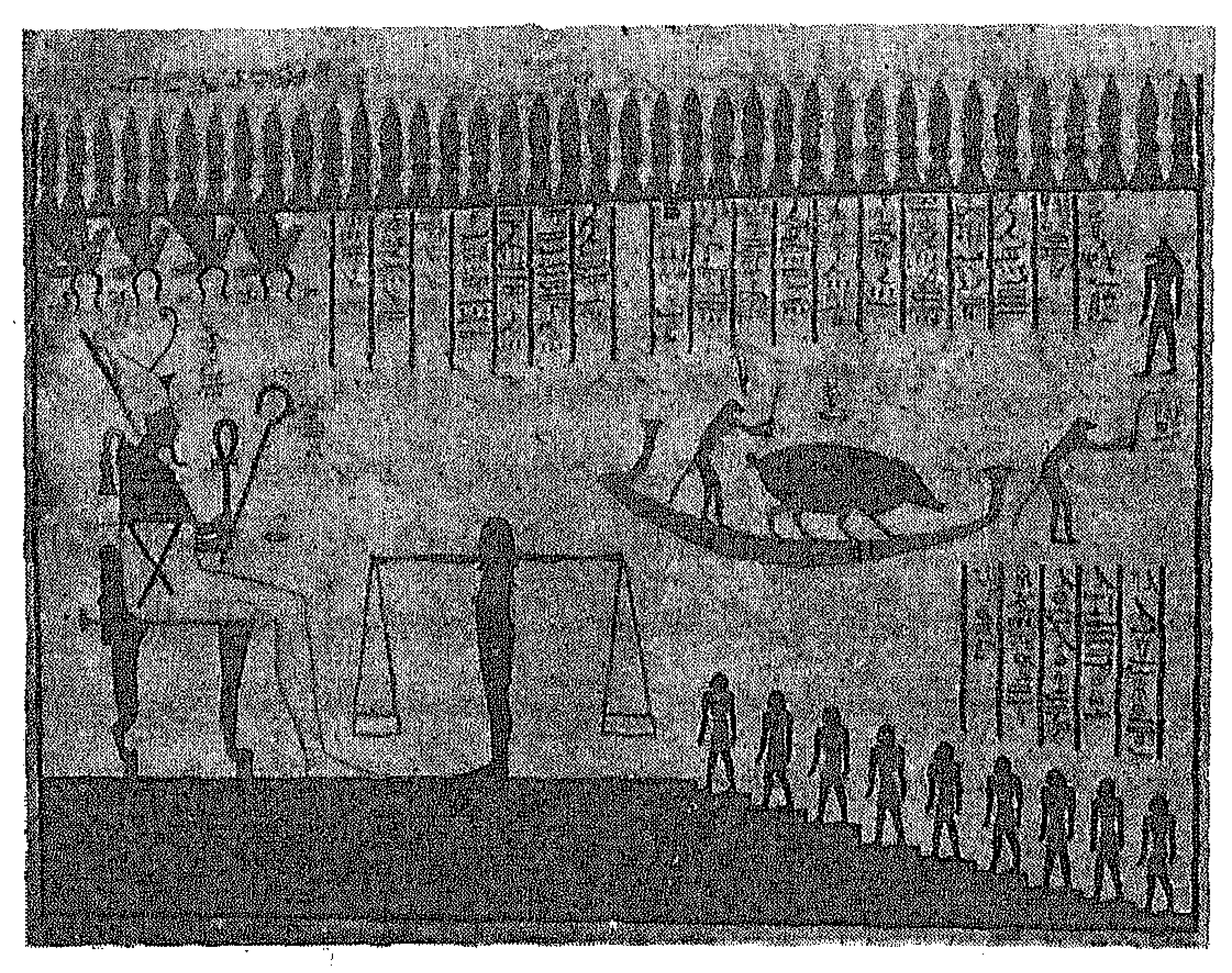
ومن الشواهد الأخرى ما جاء فى بردية (نو) خاصاً بالقرابين التى على المتوفى تقديمها : « ويقدم المتوفى ثيراناً وطيوراً ذوات ريش وبخوراً وكعكاً وجعة وأعشاباً ، وعليك أن ترسم هذا ملوناً على قرميدة جديدة مصنوعة من طين لم يطأه خنزير أو أى حيوان آخر[٥٠] » .

والحجة المتخذة من صمت النصوص تعدّ أقل البراهين قوة ، غير أنها إذا أضيفت إلى غيرها فى الميزان زادت من ثقلها : فقد وردت فى بردية هارس[٥١] قائمة بما قدمه رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ق م) إلى الآلهة تكاد تذكر كل منتجات مصر والأراضى التابعة لها ولكنها خالية من ذكر الخنزير .

تحريم الخنزير فى العهد المتأخر والعهد التالى لعهد الأسر :

عاصر هيردوت الاحتلال الفارسى الأول لمصر (الأسرة ٢٧ ، من ٥٢٢ - ٤٠٤ ق . م) وجمع من الكهان ومن مخبرين آخرين فى خلال زيارته حصيلة من العقائد والمعلومات الخاصة بالخنزير ، وإلى القارئ بعض ما رواه :

« والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً ، لذلك إذا مسّ مصرى خنزيراً فى أثناء



(شكل ٥) لوحة فى مقبرة بطيبة تمثل الإله (تحوت) فى شكل قرد ينهال ضرباً على خنزير وهو يمثل الإله (ست). الدولة القديمة

مروره به ذهب فى الحال وألقى بنفسه فى النهر دون أن يخلع ملابسه ؛ كما أن رعاة الخنازير – ولو أنهم مصريون بمولدهم – لا يدخلون – دون سائر المصريين – أى معبد من جميع معابد مصر ، ولا يرضى مخلوق أن يزوج أحد هؤلاء الرعاة ابنته ، ولا أن يتزوج منهم ، ولكنهم يتزاوجون فيما بينهم ، والمصريون لا يضحون بالخنازير لسائر الآلهة حاشا « سيلينى » و « ديونسيس » وحدهما ينحرونها ضحية لها فى الوقت الذى يكون فيه القمر بدرا . وبعد نحرها يأكلون من لحمها . أما لماذا ينفرون مشمئزين من الخنازير فى بقية الأعياد ويذبحونها فى العيد؟ فلذلك قصة يرددها المصريون ، ولكنى أرى – برغم علمى بها – أن سردها غير مناسب . وهكذا

تكون تضحية الخنازير لسيليني : عند نحر الضحية توضع نهاية الذيل والطحال والغشاء المهبلي بعضها مع بعض ، ثم تلف معاً مع كل ما هو حول بطن الحيوان من دهن ، ثم تحرق قربانا ، ويؤكل باقي اللحم في ليلة البدر الذى تقدم فيه الضحية ، ولا يذاق مطلقاً في سائر الأيام . والفقراء منهم لضآلة موردهم يشكلون من العجين خنازير ويخبزونها ، ثم يقدمونها قرباناً (٢ : ٤٧) .

« وفى ليلة العيد ينحر كل فرد أمام بابه خنوثاً لديونيسيس ثم يتركه إلى الراعى الذى باعه إياه . . . » (٢ : ٤٨)

ويعلق الدكتور أحمد بدوى[٥٢] على هذا النص فيقول : إنه جاء فى تقويم الأعياد من الدولة القديمة أن المصريين كانوا ينحرون من الضحايا عنزاً أو خنزيرا ، وذلك فى الاحتفال بعيد « سكريس » وهو اليوم الذى يزعمون أن « سكريس — أوزيريس » قد دفن فيه ، ويضيف أن هيردوت لم يخطئ حين ذكر أن الضحية كانت تحرق فى اليوم الخامس عشر من شهر (بشنس) ، ثم يعزو عدم تعرض هيردوت للروايات الدينية إلى عهد أخذه هيردوت على نفسه ، وأكده فى مواضع عدة بعدم التحدث عن المقدسات والشعائر إلا بمقدار .

ويؤكد آيليان[٣٢] هذه الرواية بعد هيردوت بستمائة سنة : « إن المصريين يعتقدون أن الخنزير رجس للشمس والقمر ، ولذا فإنهم عند احتفالهم بعيد القمر ، ينحرون خنزيراً مرة كل سنة ، ولكنهم لا ينحرون هذا الحيوان لهذين الإلهين أو لأى إله آخر فى المواسم الأخرى. (١٠ : ١٦) »

وأضاف بلوتارخ أن المصريين ينفرون من الخنزير ، لأنه يتزاوج عندما ينمحق القمر[٢٣] وما هذا إلا انعكاس للعقيدة بأن امّحاق القمر إنما هو من فعل خنزير يقضم القمر (وهو عين الإله حور) . وهذا كان نذيراً بتغلب قوى الفساد على قوى الخير والبناء .

ومن خلال هذه الأساطير ، بالإضافة إلى الروايتين اللتين ذكرناهما فى صدد قداسة الحيوان أو نجاسته ، وهما الخاصتان بإصابة عين حور بلهب من عين ست ، وبعثور ست على صندوق أوزيريس فى أثناء ملاحقته لخنزير ، نرجح أن المؤرخين القدامى نسبوا مقت المصريين للخنزير لأسباب دينية بحتة . والوحيد الذى ذكر صلة الخنزير بمرضٍ هو آيليان[٣٢] عن لسان مانيثو (القرن الثالث ق . م) قال : وعلمت من مانيثو ، وهو رجل وصل إلى أعلى مراتب المعرفة ، يقول : إن أى شخص يذوق لبن الخنزير يصاب بالجذام » (١٠ : ١٦) .

وقد ألبست الأساطير اليونانية العلاقة المزعومة بين الخنزير والجذام ثوباً شاعرياً إذ روت أن ملك (توثرانيا) بقر خنزيراً فى خلال صيد فصاح الخنزير فى وجهه : إنه جدير بالرحمة ؛ لأنه حاضن الإلهة أرتميس ، فلم يستجب الملك لطلبه وقتله ، فعاقبته أرتميس وأنزلت به الجذام[٥٣] ! وقد ظل الكتّاب يتناقلون العلاقة بين الخنزير والجذام حتّى القرن التاسع عشر[٥٤].

مظاهر النفور عند قدماء المصريين :

لم ينحت المصريون التصويرات الرائعة الّتى تزين مقابرهم لدوافع فنية بحتة ، وإنما كان الباعث على ذلك الإنتاج العقيدة بأن مجرد رسم صورة أو التلفظ بكلمة أو كتابتها – تخلق مدلولها . ومن بقايا المعابد القليلة التى تزدرى الخنازير بعض (لوحات) فى معبد أدفو تصوّر حور وهو يسدد ضربة رمح إلى ست وقد رسم فى هيئة خنزير أحيانا وفى هيئة فرس البحر أحياناً أخرى . وأدفو هى – على حسب الروايات التقليدية – المنطقة التى وقعت فيها المعارك الفاصلة بين الإلهين . .

وهناك نحت آخر فى معبد (مندولس) بكلابشة – يسجل قراراً من محافظ المنطقة ينهى عن إدخال الخنازير فى حصن معبد ولاية تلميس[٥٥] .

دلائل الإقبال على الخنزير :

غير أن هناك شواهد أخرى تناقض النهى الذى سبقت الإشارة إليه ، بل وتشير إلى الشغف بهذا النوع من اللحم : فقد وجد بالإضافة إلى بقايا العظام التى سبق ذكرها - صلاية من أول عهد الأسر صنعت على شكل خنزير، ومثل هذه الصلايات كان يستخدم لنثر مساحيق الزينة ، أو لأغراض طقسية ، ومهما يكن من أمرها فلا يعقل أن تطلى سيدات المجتمع الأنيقات وجوههن بشىء لمس صورة حيوان يشمئزن منه (٥٦) أو أن يستعملن آلات طقسية فى شكل حيوان نجس فى أثناء إقامة الشعائر الدينية .

ونقرأ كذلك أن أحد نبلاء الأسرة الثالثة أهدى لنجله ، فيما أهدى له خدما وخنازير ، ونشاهد تماثيل صغيرة من الخزف تمثل خنازير فى حصن معبد (أبيدوس) حيث دفن قلب أوزيريس على حسب القصص التى كان الكهنة يرددونها وحيث كانت جماهير الحجاج تفد لتتبرّك بزيارته (٥٧) وقد يبدو وجود هذه التماثيل فى مركز عبادة أوزيريس غريباً ، ولكننا لا نستغرب أن تربى هذه الخنازير هناك لتضحى لعدوها .

على أن نصوصاً عدّة تلمح إلى أن خنزيرة أنجبت الإله (من) ، وقد تكون هذه النصوص استمدت وحيها من منطقة قريبة من (منف) ، كان يطلق عليها (مقاطعة الخنزيرة البيضاء) وفى مقبرة من مقابرها صورة الخنزير محدّداً لفظياً لبعض الكلمات (٥٨) .

وأخيراً لنذكر من الدولة القديمة رسماً فى مقبرة (كاج نى) بسقارة (٢٤٢٣ ق . م) يمثل فلاحاً يغذى حيواناً قيل : إنه خنزير ، وإن غايرت مخالبه هذا التشخيص الأمر الذى أدى إلى القول بأنه حيوان مركب من رأس خنزير وجذعه ،

ومن أقدام كلب .

ومن المرحلة الانتقالية الأولى : (٢٢٠٠ – ٢٠٦٠ ق . م) بعد سقوط الدولة القديمة تمثل بعض مقطوعات الأدب المصرى اليأس مما لحق بالبلاد : « لم يبق بعد أعشاب أو ثمار للطيور ، وينتزع الأكل من أفواه الخنازير[٥٩] » كما جاء فى قصة (الفلاح الفصيح)[٦٠] ذكُر الخنازير ، ضمن ما كان يمتلكه الفلاح من قمح وشعير وحمير » .

وفى عهد سنسرت الأول (١٩٧٠ – ١٩٣٦ ق . م الدولة المتوسطة) لقب أحد الأعيان « مراقب الخنازير » .

وفى نهاية الحقبة القلقة التى فصلت بين الدولتين ، المتوسطة والحديثة ، وصف (خاموزى) الاستقرار الذى عاد إلى مصر : « إن جزيرة الفيلة (الفانتين) أضحت قوية ، وحقولنا تحرث ، وثيراننا ترعى فى مراعى الدلتا ، والحنطة ترسل إلى خنازيرنا[٦١] .

ويزداد عدد النصوص والآثار التى تشهد بالإقبال على الخنزير فى فنون الدولة الحديثة : كذكر تربية قطائع وصل عدد بعضها إلى ١٥٠٠[٦٢] ، وتسجيل قرابين من الخنازير فى عهد (ستى)[١] ورسم الخنازير ورعاتها فى المقابر . ومن التصويرات الطريفة صورة تمثل خنزيراً يعاون الزارعين فى عملهم ، على النمط الذى أورده هيردوت : « عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه ، ويروى الحقول ، ثم ينحسر (ثانية) بعد ريّها – هنالك يلقى كل منهم بالبذور فى حقله ، ويطلق فيها الخنازير ، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها ينتظر بعدئذ يوم الحصاد ، وهنالك يدرس القمح بالخنازير ثم يحمل بعد ذلك فى الدار » (٢ : ١٤) . وما من شك فى أن المصريين ما كانوا ليستخدموا الخنازير فى زراعتهم

---

(١) يدل اسم سيتى على نسبته للإله ست .

إذا كانوا يرون أية نجاسة .

ومن العجيب أن نشاهد عادة مماثلة فى بعض مناطق ألمانيا ، حيث يؤكل الخنزير فى يوم أربعاء الرماد (السابق لذكرى موت المسيح) ، ثم تحفظ عظامه حتى موسم الزرع ، وهناك تدفن مع الثمار . ومن الواضح ما فى هذا من تشبيه بين غرس الثمار ثم إنباتها من جهة ، وبين موت المسيح ، ودفنه ، ثم قيامه من الأموات يوم الفصح ، من جهة أخرى .

وتردّد صدى الروايات الرابطة بين الخنزير والزرع فى اليونان ، حيث قُص أن الإلهة (أرتميس) أرسلت خنزيراً برياً لتخريب مزارع ملك (كالدونيا) والفتك ببهائمه ، فاشترك أبسل الإغريق فى مطاردته وقتله استجابة إلى طلب الملك ، وأن (آريس) تنكر فى صورة خنزير ليقتل (أدونيس) . وهى الرواية التى أسلفنا أن ذكرناها .

وقد كانت ذكرى وفاة أدونيس تحيا فى منطقة (ميزيا) بالشرق الأدنى ، حيث كان أحد السكان يرتدى جلد خنزير برى ونابين من الذهب ، ويطارد ، ولا ينجو من الموت إلا إذا نجح فى اللجوء إلى معبد أرتميس[٦٣] .

وهى مأساة تترجم ترجمة شاعرية ظاهرة اختفاء الزرع ستة أشهر من السنة وازدهاره فى خلال الأشهر الستة الأخرى ، كما نجد فيها تفسيراً روائياً لتلون النهر بالطمى الذى يحمله فيضه كل ربيع .

وقد فسّر فريزر[٦٤] تردد الربط بين الخنزير والزرع ، فقال : إن الخنزير البرى يعتاد ارتياد مزارع القمح والاختباء فيها ، وعند الحصاد ، إذ تنكشف الأرض أمام الحاصدين ولا يبقى له معتقل - يخرج هائجاً للدفاع عن نفسه ، ويهاجم كل من يعترض طريقه فى وحشية متناهية ، وهكذا يخال الزارعون أن روح القمح تتجسد فى جسم خنزير للفرار .

وكان اصطياد هذه الوحوش أحد مقتضيات الحياة اليومية بغية الحفاظ على حياة العباد ومزارعهم ومنازلهم ، ورغبة فى حماية الحضارة من الخراب ، ومازال شيء من هذا شائعا فى بعض البلاد : كمستنقعات العراق القريبة من البصرة ، حيث يقوم العرب بحملات منظمة بهذا الغرض[٦٥] أو لا يذكرنا هذا إله الدمار (ست) ورهط حيواناته الجائرة ؟

ولنعد إلى مصر ، ولنسأل : ماذا أصاب الخنزير من تقدير أو كره فى عصر البطالمة ؟

الجواب أن تناقض الشهادات يعكس ازدواج العادات والعقائد. قال سكستس إمبركس[٦٦] : إن اليهود وكهنة المصريين يؤثرون الموت على أكل الخنزير. وأكد بلوتارخ[٦٧] وآيليان (١٦ : ١٠) هذا الرأى ، فى حين أن غيرهم لم يشاركهم فيه ، وأن الشواهد تشير إلى تمتع رعاة الخنازير باعتبار لم يقلّ عما ناله غيرهم من المصريين[٦٨] ،وإلى تنظيم رعاية هذا الحيوان وتغذيته ، وكيفيةً تضحيته ، وتقديمه من خلال الولائم الدينية ، على حسب لوائح دقيقة[٦٩].

أما الإغريق فإنهم لم يتحرجوا قط عن أكل لحمه ، قال أبو الطب أبقراط : إن لحم الخنزير أفضل اللحوم ، وإنه يجب اختيار ما لا يكون مفرط السمنة أو النحافة ، أو متقدما فى السن وإنه يجب أكله باردا دون جلده.

ومع ذلك تجنب البعض أكله ، لأن خنزيراً قتل إلههم ، كما أسلفنا فى روايات أدونيس وعشيقته الغيورين.

هل نستطيع التوفيق بين هذه التناقضات ؟

بعد سرد ما سبق نرى أن من المستطاع حلّ بعض هذه التناقضات إذا راعينا كيفية نشأة العادات وانتشارها والظروف المتغيرة التى شاهدتها العهود المختلفة.

أولا : لا يجوز إطلاق ما نعرفه من تقاليد منطقة ما على البلاد بأسرها ، أو حتى على المناطق المجاورة لها : ذلك أن مصر قلما أخضعت فكرها لمذهب ديني موحد ، كما تبين من استمرار عبادة (ست) فى تانسى وكوم امبو فى الوقت الذى كانت عبادة أوزيريس مسيطرة فيه نفسه على الدولة .

ثانيا : طبيعة المصريين كانت دائما تميل إلى التعايش وإلى السماح ببقاء العبادات المحلية إلى جانب العبادة الرسمية ، ولذا فالكشف الذى يدل على استحسان الخنزير فى منطقة بصفة عامة لا يدل على استحسانه فى كلّ مكان .

ثالثا : اعتاد المصريون - نتيجة لتسامحهم - مزج الآلهة وابتداع شخصيات إلهية مركبة ، كإله (سرابيس) المركب من أوزيريس وأبيس ، وغيره . ومن الأمثلة التى تعنينا ، تصوير (نوت) إلهة السماء التى كثيرا ما خلط بينها وبين إيزيس ، فى شكل خنزيرة عملاقة .

رابعا : كانت العقائد والتقاليد تتطور على مرّ الزمن بسبب فرض آلهة دخيلة عليها : إما نتيجة لفتح أجنبي ، أو لقيام سلطان جديد ، أو رغبة فى مجاملة جيرانها .

خامساً : قد تشيع العقائد لدى فئة النبلاء والحكام ، ولكن هذا لا ينسحب بالضرورة على الطبقات الشعبية ، وذلك لاختلاف الأصل أو لاستطاعة الأثرياء تنويع مأكولاتهم ؛ كما أن الكهان كانوا مرغمين على الخضوع لشروط النقاوة الدينية على حين أن غيرهم لا يبالى بها . ويشتد هذا الاختلاف كلما فرض الحظر بالقوة .

وخلاصة القول أننا نجد فى حلقة أوزيريس - حور - ست ، وما حام حولها من ذيول وَزِيَنٍ ثانوية - أقدم مفتاح يحل لغز الخنزير ، فإن هذه الأسطورة سبقت بقرون قوانين موسى التى سنشير إليها فيما بعد ، وهى تجيز تفسير استحسان الخنزير

عند شعب ،أو فى قرية ،أو فى خلال حقبة ، واستقباحه عند شعب آخر ، أو فى قرية مجاورة ، أو فى خلال حقبة مختلفة ، على شكل منطقى صحيح ، وأسس تاريخية محققة .

الباب الثالث

التغذية واضطراباتها فى مصر القديمة [1]

والآن بعد أن ناقشنا الديانة الأوزيرية وما فرضته على الأنماط الغذائية وعلى الحياة العامة – يجدر بنا النظر فى الحالة الغذائية فى مصر القديمة :

يقوم تحديد الحالة الغذائية من الناحية العلمية على قياس عناصر محددة تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فى نفقات المعيشة ، وفى تيسير السلع ، ومن هذه العناصر الكثافة السكانية ، وسعة الرقعة الزراعية ، وإمكانات الرى والصرف ، وفاعلية وسائل الزراعة والإنتاج ، وتوافر الموارد الحيوانية والصناعية ، ونشاط التجارة الخارجية .

يضيف الأطباء إلى هذه العوامل العامة – عاملاً آخر ، وهو ماقد يصيب العباد

---

(١) يمكن القارئ الاطلاع على صور كل الأشخاص والعاهات المذكورة فى هذا الكتاب فى مؤلف الدكتور بول غليونجى والسيدة زينب الدواخلى [٩٧]

من أمراض تعوق امتصاص الغذاء من الأمعاء ، فيعيش الإنسان جائعاً وسط اليسر ، وهذه الحالات كثيراً ما تنتج عن الإصابات الطفيلية التى ترتبط بالمناخ وبالعوامل الجغرافية عامة :

ففيما يتعلق بكثافة السكان فى مصر يبدو فى ضوء المعلومات الضئيلة وغير المحققة التى وصلتنا أن مصر لم تعان من اكتظاظ بالسكان فى غضون الدولة القديمة ، أما فى خلال الدولة الحديثة فإن مصر كانت آهلة بالناس ، وإن كان عدد هؤلاء لم يفق ما يستطيع وادى النيل تغذيته ، وقد قيل : إن عدد السكان فى عصر (سايس) - أى فى القرن السابع قبل الميلاد - كان عشرين مليوناً ، ولكن هذا التقدير غير يقينى ؛ لأنه بنى على اعتبارات تنطبق على العصور الحديثة ،ولم يرتكز إلى أى سند واقعى .

وفيما يخص العهود القريبة منا فإننا نستطيع استقراء كتابات المؤرخين الإغريق وهى على جانب كبير من الصحة بسبب اعتياد الأباطرة وبصفة خاصة البطالمة إجراء إحصاءات دورية : قدر هيردوت فى القرن السادس قبل الميلاد عدد المدن فى مصر بعشرين ألفاً ، ولكنه تحفظ إذ أضاف أن تقديره مبنى على أقاويل وصلت إليه ؛ وبعده بخمسة قرون روى ديودور الصقلى أن عدد المدن كان ثمانية عشر ألفاً قبل بطليموس سوتير ، وأنها وصلت فى عهده إلى ثلاثين ألفاً [٧٠] .

ولقد قدر بوتزر [٧١] مساحة الرقعة المزروعة فى مصر فى أواخر العصر السابق للتاريخ بستة عشر ألف كيلو متر مربع ، وهى فى رأيه مساحة تكفى تغذية عدد يتردد بين ١٠٠,٠٠٠ ، ٢٠٠,٠٠٠ مواطن ، ولكن هذه المساحة ظلت تتسع بفضل سياسة الحكام وتحسين وسائل الرى والتحكم فى فيضان النيل الذى - إذا صدق هيرودت - بدأ فى عهد مينا ، أول فرعون فى التاريخ ، ويشهد على هذا الاهتمام المبكر نقش على إناء يظهر فرعون (نعرمير) من الأسرة الأولى وهو يحرث هو نفسه

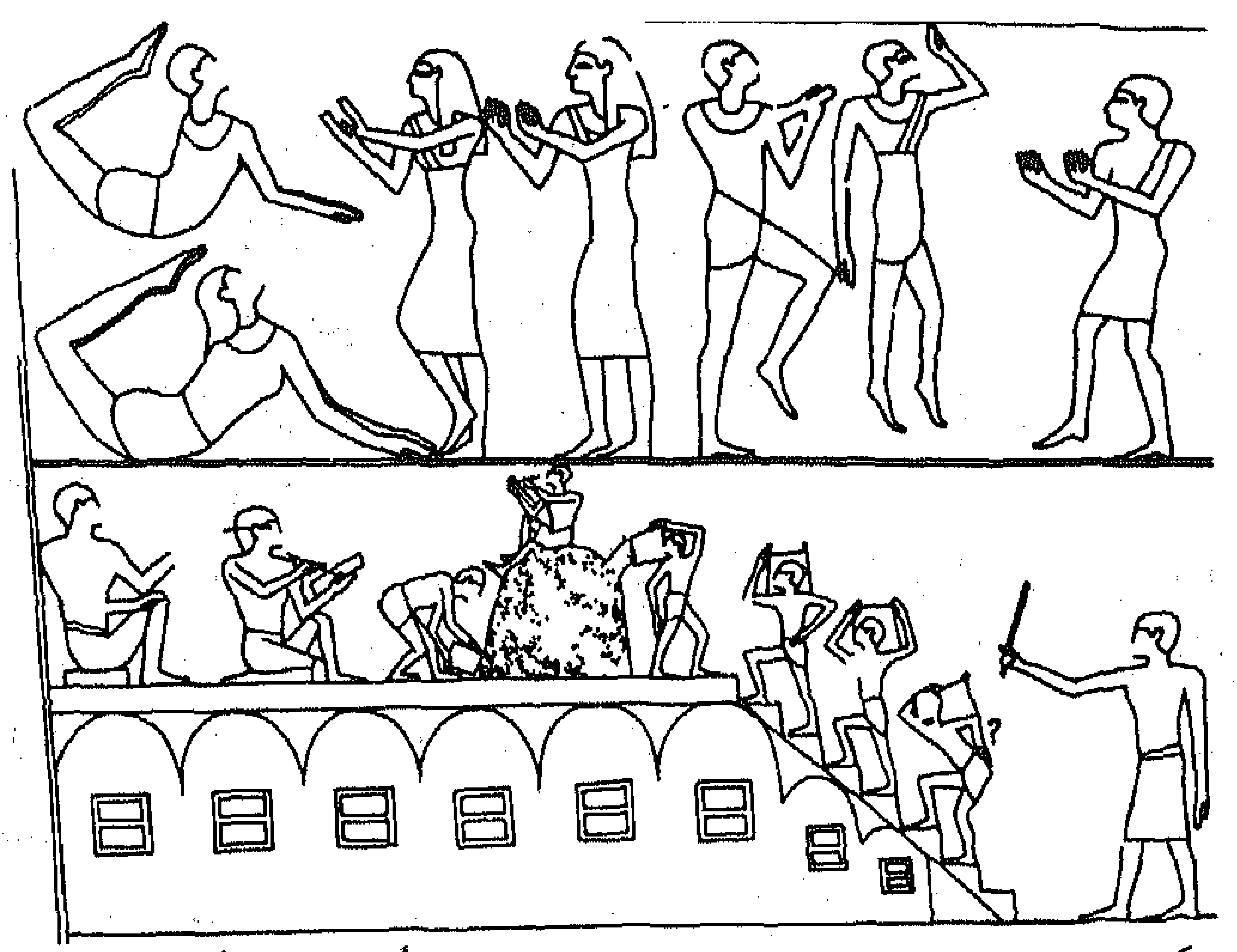
أرضاً ويحفر القنوات .

يأتى بعد المساحة المزروعة عامل آخر وهو خصب الأرض ، وهذا لا يحتاج إلى تفصيل حين نتحدث عن أرض مصر التى سميت (كمت) أى الأرض السوداء لتمييزها عن الصحراء وكانت تسمى الأرض الحمراء . ولطالما تعجب المؤرخون من خصب أرض تنتج ثلاثة محصولات فى السنة ، ولا تعتمد على المطر فى ريها ، وأشادوا بثراء مصر الزراعى (شكل ٦) . ويكفى أن نذكر أن ضيعة واحدة لأحد أمراء مدينة الكاب كانت تغذى ١٢٢ من البقر و ١٠٠ من الخراف و ١٢٠ من الماعز و ١,٥٠٠ من الخنازير ، وأن حاكماً واحداً هو رمسيس الثالث قدم ٥١٤,٦٩٨ من البهائم الكبيرة الحجم و ٦٨٠,٧٦٤ إوزة إلى معابد آمون - رع خلال إحدى وثلاثين سنة . وتلك الأعداد الضخمة من الماشية تفترض وجود مراع غاية فى الخصب والازدهار .

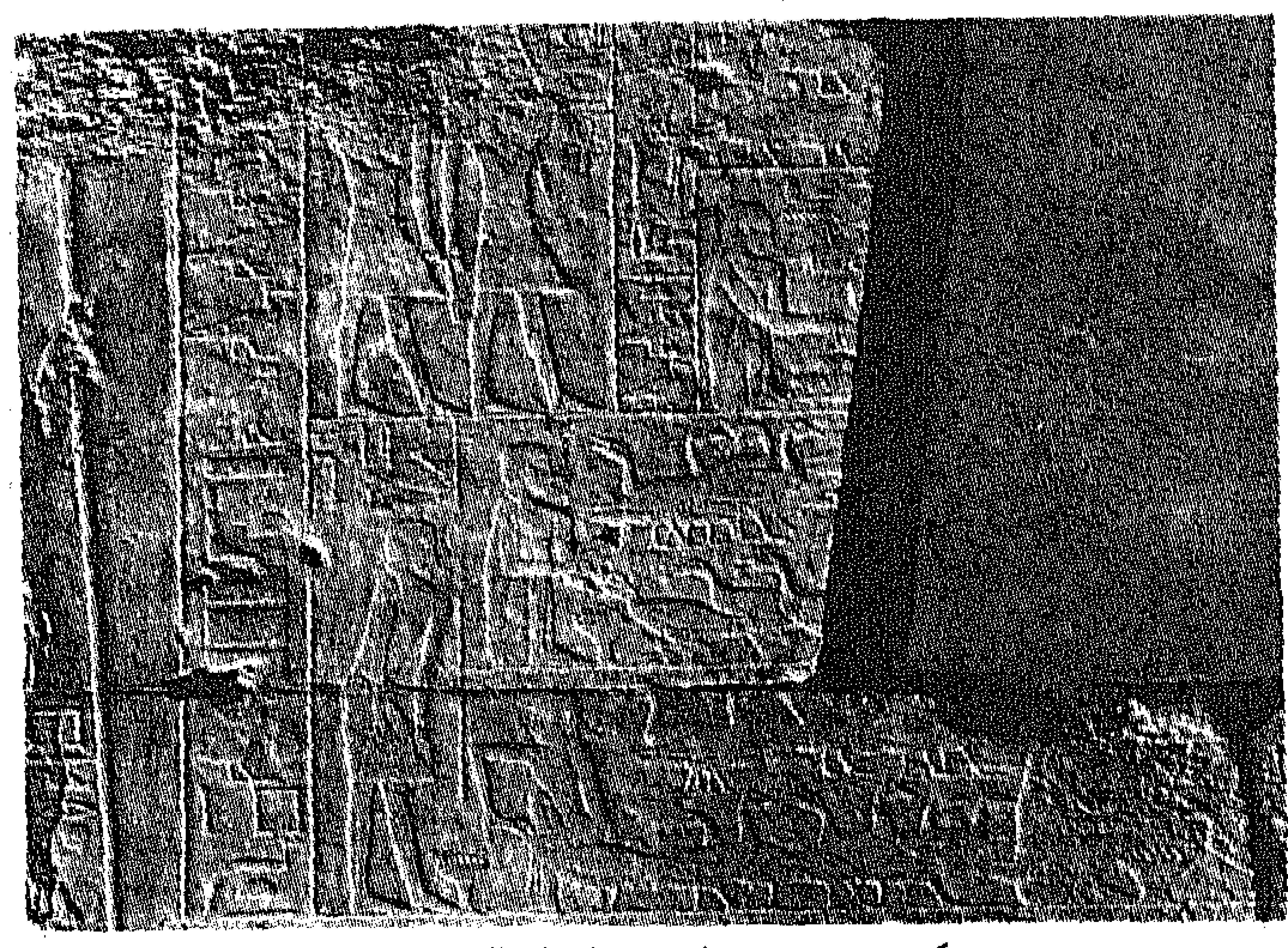
وبالإضافة فإن مصر - منذ الدولة القديمة - على اقتصارها سياسيًّا فى ذلك العصر على حدود بلادها ، وعدم توسيع حدودها - نقول : إن مصر كانت على علاقات دائمة - وإن كانت متقلبة - مع جيرانها : النوبيين فى الجنوب ، والليبيين فى الغرب ، والفينيقيين فى الشرق ، حتّى مع أهل بلاد (بونت) بالصومال الذين نراهم على جدران معبد الدير البحرى فى طيبة ، وهم يقدمون الهدايا من إنتاج بلادهم .

أما فى عهد الدولة الحديثة - حين تجلت روح الاستعمار فى مصر - فقد ازدهرت التجارة الخارجية ، وامتدت لتشمل كذلك جزيرة كريت وجزر بحر إيجه .

وإذا نظرنا الآن إلى نفقات المعيشة أدركنا قلة معلوماتنا عنها ، ولا داعى هنا إلى أن نتطرق إلى الحديث عن استعمال المصريين للعملة النقدية ، ولا عن قيمة المعايير



(شكل ٦) حفلات الغناء والرقص التى كانت تقام ابتهاجاً بالحصاد (أعلى الصورة) وتخزين القمح فى الصوامع (أسفل الصورة).



(شكل ٧) تسمين الإوز. الدولة القديمة. سقارة

التى كانت تقدر بها السلع عند التعاقد ، لكن المعروف أن الأثمان تغيرت بطبيعة الحال بتغيير الأحوال السياسية ، وكذلك الجرايات : فقد ذكر أن مئونة العمال قبل سنة ٣٨ من حكم بطليموس فيلادلف كانت توفر – على حسب تقدير ركمانز[٧٢] مقدار ٣٧٨٢ سعراً من البذور ، على حين انخفض ما كانت توفره بعد ذلك التاريخ إلى ٢٨٣٦ سعراً .

وقد يشير نصٌّ متشائم برسم حياة الزارع بأقتم الألوان إلى انتشار الجوع والفقر بين الفلاحين ، غير أن المقصود منه كان التشجيع على الانخراط فى سلك الكتبة الموظفين والتشهير بجشع السلطات وأصحاب الأملاك ؛ إذ يبدو أن غذاء الشعب كان كافياً . .

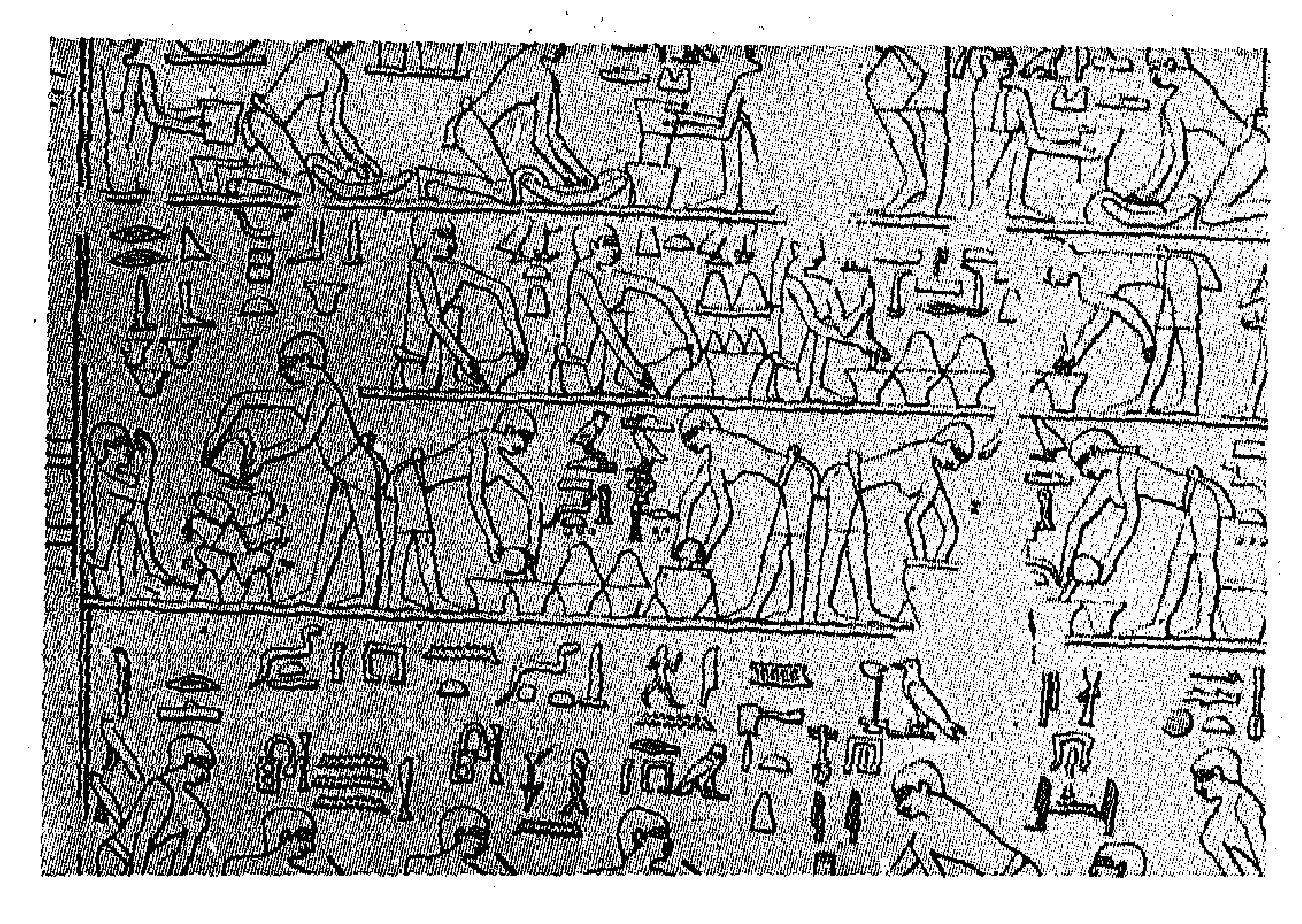
يقول هيردوت (٢ : ٧٧) عن المصريين إنهم : «أصح الناس عامة بعد الليبين . . . إنهم يأكلون خبزاً من القمح ذى الحبة الواحدة . . ويأكلون السمك نيئاً ومجففاً فى الشمس أو بعد حفظه فى الملح . ومن الطيور السمان والبط (شكل ٧) والعصافير التى يتناولونها نيئة بعد تمليحها ، فضلاً عن الطيور الأخرى باستثناء ما يعدونه منها مقدساً – وكل ما تبقى يأكلونه مشوياً أو مسلوقاً» . ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنهم كانوا يجهلون الدجاج .

وتحدثنا النصوص عن الجرايات التى كانت توزع على العاملين فى الدولة أمثال ألف العامل الذين أوفدهم سيتى الأول لنقل تماثيل آمون – رع الآلهة التسعة : فقد أمر فرعون بأن يُقدَّم كل يوم إلى رسول الملك ورافع لوائه خبزٌ جيد ولحم بقر ونبيذ وزيت حلو ودهن وعسل وتين وسمك وخضر[٧٣] .

وإذا كانت هذه الجراية قد خصصت لشخص عادى فبطبيعة الحال كانت وجبات الملوك أكثر ترفاً : فما ذكرته قائمة مأكولات (أوناس) الذى اعتلى العرش حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م . : «لبن ، ثلاثة أنواع من النبيذ ، أربعة أنواع من

الخبز ، عشرة أشكال من الكعك ، أربعة ألوان من اللحوم ، شرائح لحم مختلفة ، لحم مشوى ، لحم الصدر والأطراف والذيل ، إوز ، حمام ، تين ، وعشرة أنواع أخرى من الفاكهة ، حنطة ، شعير ، خمسة زيوت ، وخضر طازجة (٧٤) . وقد أضافت العهود اللاحقة إلى الموائد ألواناً فاخرة من الأطعمة المستوردة من قبرص وبابل وبلاد الحيثيين وغيرها .

ولكن هذه القوائم شبه الإلهية اختلفت تماما وقوائم أكل الشعب ، ويدل على ذلك ما فعله (خوفو) إذْ أرادَ تقديم الهدايا بمناسبة معجزات رويت له : لقد قدَّم ألفَ رغيف ، ومائة إناء جعة ، وثوراً كاملاً لذكرى الملك الذى وقعت أحداث القصة فى عهده ، فى حين أنه لم يقدم إلى الساحر صانع المعجزات سوى كعكة واحدة ، وإناء واحد من الجعة ، وشريحة واحدة من اللحم (٧٥) !



(شكل ٨) تفاصيل صناعة الخبز والجعة . الدولة القديمة . سقارة

وهنا يتحتم علينا عدم الأخذ بالروايات على أنها حقائق تاريخية ، وأقصى مثال للمبالغة ورد فى رواية الساحر (جيدى) الذى كان يلتهم كل يوم – ربما بفضل سحره – خمسائة رغيف وفخذ بقرة كاملة ومائة إناء من الجعة [٧٥] . ولنا أن نشك فى أن معدة قدماء المصريين كانت بهذه السعة .

ومع ذلك فإن مثل هذه الروايات – إذا أخذت بالحيطة والتحفظ – ترسم لنا صورة حية لحياة الشعب ، شأنها شأن قصص (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) وغيرها من إنتاج الخيال الشعبي . ولذا فإننا جمعنا ألوان الطعام التى ذكرت فى قصص قدامى المصريين الشعبية وتبين لنا أن أكثر الألوان وروداً هى الخبز والجعة (شكل ٨) والفاكهة والخضر (انظر الجدول المرافق) ، والشيء الذى كان له مغزى خاص هو ذلك القول الذى كان سائداً «خبز وجعة» الذى كان يشير إلى الأكل عامة مثل قولنا العامى «العيش والملح» ، والذى كان يقال أيضا للتحية .

ولا شك أن المصرى القديم – وهو فى هذا لا يختلف هو والمصرى الحديث –

ألوان الطعام المذكورة
فى القصص المصرية التى ترجمها ليفبر

النوع	عدد المرات
الحبوب والخبز	
شعير	٦
قمح	٤
خبز	١٥
كعك	٥
المجموع	٣٠
الخضر	
بدون تحديد	٢
عدس	٢
خس	١
خيار	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
فواكه	
دون تحديد	٢
تين	٢
عنب	٢
جميز	٢
حب العزيز	١
المجموع	٩
مختلف	
لبن	٤
عسل	١
زيت زيتون	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
لحوم	
دون تحديد	٣
لحم مسلوق	١
بقـر	٦
كبد بقر	١
مواشٍ	٢
ضأن	١
خنزير	١
حيوانات صغيرة	٢
حيوانات برية	١
سمك	١
المجموع	**١٩**

النوع	عدد المرات
طيور	
دون تحديد	٤
طيور مائية	١
طيور مشوية	١
المجموع	**٦**
مشروبات	
جعـة	١٦
نبيذ	٥
المجموع	**٢١**



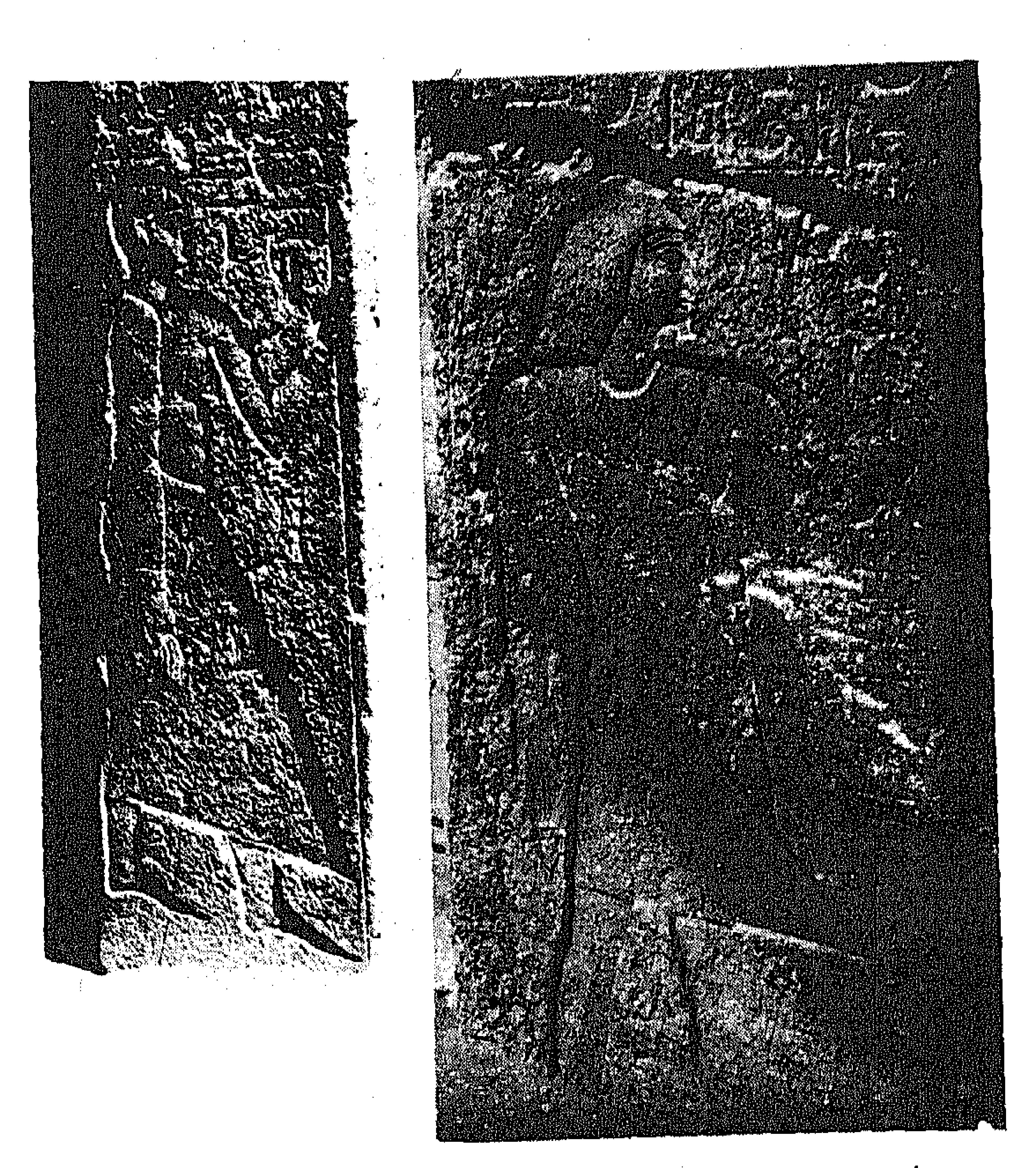
(شكل ٩) قرابين للموتى : اوزتان ، بصل ، خس ، فخذة ، قرع ، أرغفة مختلفة .
وجرتان . مقبرة من الأسرة ١٨ من أبيدوس . متحف القاهرة . رقم ٣٤٠٠٢ .

لاشك فى أنه أحب مأكله ومشربه ، فقد غطى جدران مقابره ، وكان يسميها «بيوت الخلود» بما كان يشتهى أكله فى حياته الأخرى . (شكل ٩) . ونرى فى هذه المقابر مناظر جميلة للفلاحة الوسيمة وهى تعجن ، وللنحال وهو يجنى العسل من خلايا لا تكاد تختلف هى والخلايا الريفية الحديثة ، وللكاهن الطبيب وهو يشرف على الذبائح أو يشم دماً يقدمه له القصاب على أصابعه ، ليحكم على صفائه ، ولحانوت القصاب حيث تعرض شرائح اللحوم ، ولصيد الطيور ونزع ريشها توَّ صيدها ، ثم شيها ، أو لصيد الأسماك وفتحها لتجفيفها فى الشمس واستخراج البطارخ منها (شكل ٤) ، وللفلاح وهو يجنى التين من الشجر على حين تخطفها منه القرود ، أو للحصاد الذى كان يُعد عيداً مصحوباً بنغمات عازف الناى (شكل ٥) ، أو بآلاف الصور التى لا يتسع وقتنا لعرضها حتى إذا خصصنا لها مؤلفاً كاملاً .

أما بالنسبة للأطفال فكانت مدة الرضاع ثلاث سنوات ، وكان يُلْجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن - على الأقل فى عصر البطالمة - خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز (٩٣=٧٨٨ ، ٩٤= ٧٩٦) طريقة التميز بين اللبن الصالح وغيره بالشم .

ويمكن عامة قبول قول هيردوت : إن مستوى التغذية فى مصر كان جيداً حين قال : إن المصريين أصح الناس بعد الليبيين (٢ ، ٧٧) وهذا ما تشهد به آلاف التماثيل والصور التى تصورهم فى أجمل أشكال الرجولة أو الأنوثة .

ولكن : ما قيمة هذه الصور ؟ وهل تعدل قيمتها قيمة الوثائق التاريخية ؟ وفى رأيى أن هذه الأجسام المفتولة العضلات ، المثالية تشريحيًّا وفنيًّا ، الشبيهة بأجسام فلاحينا - كانت صوراً مستوحاةً من الطبقات العاملة التى درب أصحابها على العمل الجسمانى الشاق وعلى تناول طعام هزيل . أما الطبقات الغنية فإن الأدلة تشير



(شكل ١٠) صورتان للشخص نفسه عنخ - ما - حور من مقبرته فى سقارة

إلى تفشى البدانة بينها :

من هذه الأدلة أننا كثيراً ما نجد صورتين للشخص الواحد على حجر واحد : تصور إحداهما وهى القريبة من داخل المقبرة - المتوفى على النحو الذى يرغبه لنفسه فى حياة الخلود : أى نحيف وكأنه بطل رياضى على حين تصوره الصورة الأخرى فى اتجاه الدنيا البائدة بديناً كما كان فى الحقيقة (شكل ١٠) والسبب فى هذا إتاحة تعرف الروح على جسمها حتى تتقمصه وتنعشه من جديد !

نرى الرغبة فى إخفاء معالم المرض والتشوه لتجنب الاحتفاظ بها فى الحياة الأخرى ، نراها مجسمة فى صور فرعون (سبتاح) الذى نعرف من مومياه المحفوظة بمتحف القاهرة أنه أصيب بضمور فى ساقه ؛ فلم يشأ أن يسجل هذا التشوه على صوره الرسمية التى كانت - حسب ظنه - تدب فيها الحياة بفعل السحر بعد موته .

وكانت البدانة بغيضاً فى نظر المصريين حتى فيما يتعلق بالحيوانات المؤلهة . وفى هذا الصدد يقول بلوتارخ [٧٦] عن الكهنة ! إنهم لا يحبون أن تكون عجول آبيس سمينة ، بل ولا يريدون هذا السمن لأنفسهم ، لأن أجسامهم - وهى كساء أرواحهم - يجب أن تكون خفيفة لا يسيطر فيها العنصر البائد على العنصر الإلهى .

ولكن هذه الاعتبارات لم تحل بين الفنانين وبين تصوير البدانة . بل ربما كان يروقهم أن يمضوا فى تصويرها سخرية من الأغنياء والكسالى . ونرى هذا فى صورة لحارس باب معبد وكأنه بواب من بوابينا أو لطاهى مقبرة عنخ - ما - حور ، أو لربان زورق جالس بين خدم انشغلوا بتقديم الطعام له .

أما فيما يتعلق بتصوير الأجانب فقد تمتع الفنانون بحرية تامة ، ولذا فإن تمثال هروا الحبشى نموذج للبدانة ، وكذلك تمثال (أريجاد جادن) ، ونحت ملكة بنط الصومالية التى رسمت لها رسوم هزلية (كاريكاتورية) فى عهدها .

ولا شك فى أن البدانة نتجت فى هذا العصر - كما تنتج اليوم - عن حب

المصريين لطيبات الدنيا. وقد روى هيردوت أنهم فى ولائمهم بعد أن ينتهوا من الأكل - يطوف بهم رجل يحمل فى نعش جثة من الخشب تشبه تماماً جثة آدمية، ويعرضها على الحاضرين ويحثهم على الشرب والتمتع؛ لأنهم سيصيرون مثلها بعد الموت! (٢، ٧٨).

ولم يكن بعض الملوك ليشذوا عن هذا السلوك: نقرأ عن الملك أمازيس أنه كان ما يكاد يفرغ من تصريف أمور الحكم حتى ينكب على الشراب والمزاح واللهو مع ندمائه.. ولما أبدى أصدقاؤه سخطهم أجابهم: إن الأقواس إذا ظلت مشدودة انقطعت، والإنسان إذا ظل جاداً ولم يلهَ اختل وعتِه (هيردوت ٢، ١٧٣).

وكانت الجعة - ولم تختلف هى و(البوظة) إلا قليلاً - الشراب الشعبى الأول، كما أنها ظلت على مدى القرون شراب شعوب العالم قاطبة المفضل، وهناك ما يدل على أنها فضلت على الماء الذى عد مصدراً للأمراض لعدم الإدراك لطبيعة التلوث وللجهل بوسائل تطهير مياه البرك والآبار، فكان إنتاجها - وإلى درجة أقل من إنتاج النبيذ - ضخماً. وإننا لنرى الفتيات يصفين العجين لتحضيرها، ونرى عمال الكروم يدهسون العنب وهم ممسكون بالحبال وكأنهم يخشون الانزلاق من تأثير أبخرة التخمير وكان النبيذ يوضع فى جرات تسجل عليها سنة الإنتاج، ودرجة الجودة، والنوع، والكرم الذى استخلص منه، واسم صاحبه، واسم المصنع.

غير أن النبيذ كان مشروب الأعيان، ونرى سيدة فى مأدبة تأمر الساقى: أعطنى ثمانى عشرة كأساً من النبيذ! إنى أريد مواصلة الشراب حتى الثمالة! إن حلقى جاف «جفاف القش»! وفى مقبرة أخرى واصلت سيدة «أنيقة» الشراب حتى تقيأت؛ كما نشاهد فى رسم هزلى حارس مخزن خمور وهو فى حالة تخدر

عميق ، فلا يستجيب للقارعين على باب القبو ، ويتشدق عندما يقول أحدهم : «إنه نائم من الخمر» فيجيب : «لا ، لست نائماً» ! .

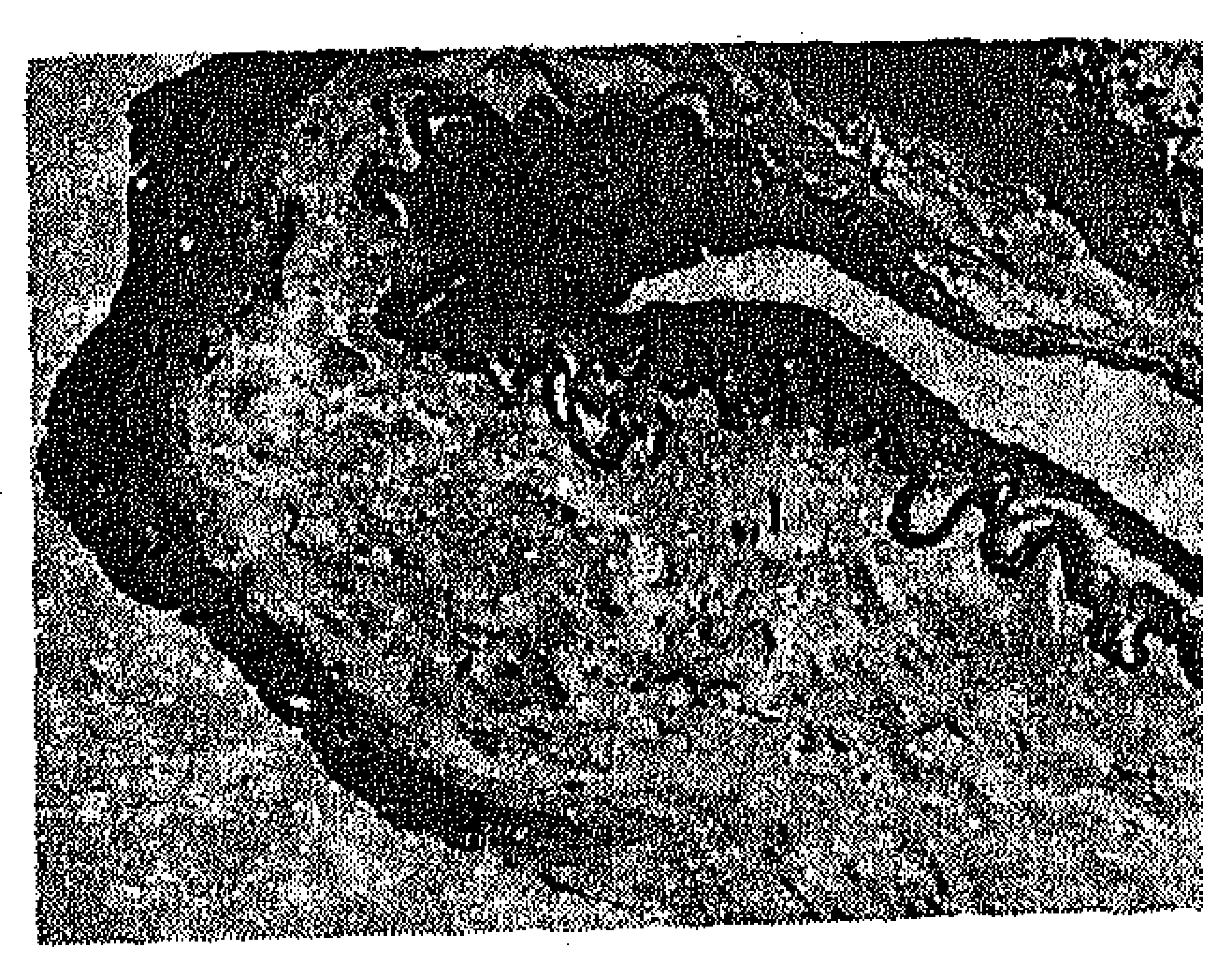
ولذا فإن أدب هذا العصر لم يخل من النصائح للنهى عن الشرب أو السخرية من مدمنيه : «إنك تتجرجر من ردهة إلى ردهة ، لقد فاحت رائحتك بالجعة ، إنك كالمقذاف المكسور ، كالبهلوان على حائط . . انظر إلى نفسك . . غريق فى العطر وأكاليل الزهور حول عنقك ، تُطَبِّل على معدتك ، تترنح على الأرض بين القمامة ! » .

وجاء ضمن نصائح (آنى) الحكيم : «لا تلتزم من قبيل الزهو بشرب أبريق كامل من الجعة ؛ فإنك (بعد ذلك) إذ تتكلم يخرج من فيك قول لا معنى له ، وإذا سقطت وانكسرت ساقك فلن تجد من يمد إليك (يده) . وإخوانك فى الشراب سيقفون ويقولون : ابعدوا عن هذا الأحمق ! . وإذا حضر إنسان ليبحث عنك ليستجوبك وجدك طريح الثرى مثلك فى هذا مثل الطفل الصغير ! . »

كان من الطبيعى إذن أن يصاب الكثيرون بأمراض الإفراط فى الغذاء .

وقد كشف روفر [٧٧] وإلبوت سميث [٧٨] ولونج [٧٩] بتشريح المومياوات عن مرض تصلب الشرايين الذى يُعزَى اليوم إلى ارتفاع نسبة الدهنيات فى الدم (شكل ١١) ، ومن المومياوات المصابة به مومياوات رمسيس الثانى ومنبتاح وغيرهما ، وقد أدت وسائل الفحص الحديث بالأشعة السينية إلى الكشف عنه فى مومياوات كثيرة أخرى [٨٠ ، ٨١ ، ٨٢] حتى فى مومياوات ترجع إلى ما قبل التاريخ [٨٣] . ولا تخالف معالم هذا التصلب المجهرية بمعالمه فى عصرنا هذا ، فقد وجد سانديس [٨٤] التغيرات نفسها ، وهى ضيق الممر فيها ، وترسب مواد دهنية فى أغشيتها وازدواج الغشاء المرن الداخلى وتليفه ، وتكلس الغشاء الوسيط !

ووُجِدَ حصى الصفراء فى جثة كاهنة من كاهنات آمون من الأسرة ٢١ ، كما





(شكل ١١) شرايين مومياء تبين تحت المجهر كل مظاهر تصلب الشرايين

كشف عنها بالأشعة فى جثة أخرى ، ووجدت آثار تقوس فى جثة ترجع إلى أوائل العهد المسيحى (٧٧) .

أما حصَى المسالك البولية فقد عثر على عدد منها وإن كان نادراً : حالتين بالمثانة وثلاث حالات بالكلى من بين ٣٠,٠٠٠ جثة مصرية ونوبية (٧٨ ، ٧٩) ، ولا ندرى هل كان هذا الحصى من النوع الناتج عن اضطرابات التمثيل الغذائى أو عن البلهارسيا ، أو عن أسباب أخرى ؟

ويمكن تأويل بعض الملاحظات الواردة فى بردية إبرز عن إدرار البول (٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠) بأنها تخص البول السكرى . ووصف لها العسل ، ولو أن المصريين فطنوا إلى حلاوة طعم البول فى هذا المرض لقلنا : إنهم وصفوا العسل علاجاً تعويضياً ، ولكنهم لم يتركوا أى نص يسمح لنا حتى بمجرد تخمين هذا .

* * *

وإذا انتقلنا من كثرة التغذية إلى نقصها جاز لنا أن نتساءل : إذا كان الخير فى مصر وافراً فهل يمكن حدوث أمراض نقص التغذية ؟ والإجابة هى : أن مجرد معرفة ألوان الأطعمة المتوافرة لا يكفى معرفة كنه الغذاء ؛ فقد تعم المجاعة لأسباب خارجية كالحروب والأعاصير ، وقد يصاب الناس بأمراض سوء الامتصاص . وقد تهمل بعض الأطعمة نتيجة للجهل أو للحظر.

تعتمد مصر اعتماداً كلياً على النيل لرى أراضيها ، وقد حاول الحكام منذ عهد مينا – على حسب قول هيردوت(٢، ٩٩) – بناء السدود وإقامة المشروعات الكفيلة بتنظيم انسيابه ، وخصصوا كبار الموظفين لمراقبته ، يحملون ألقاب محافظ البحيرات ، ومدير السدود ، ومراقب الصرف ، والمشرف على الفيضان وعلى أراضى «طرح البحر» [٨٥] ، وهذا لأنهم اختبروا نزوات (هع – پى) إله النيل الذى زادت بدانته وحجم ثدييه كما زاد كرمه ، وهى نزوات «زيادةً كانت أو نقصاناً – طالما أنزلت بالدولة أبشع النكبات ! وقد وردت نصوص تصف بشكل واقعى آثار هذه الكوارث ، ولذا جنح الحكام – كما فعل سيدنا يوسف – إلى جمع الحنطة فى سنى الرخاء لتوزيعها خلال سنى القحط ، ورسموا الصوامع التى تحفظ بها فى أشكال من كل العصور ، والفلاحون يملئونها من أعلى ويفرغونها من فتحات من أسفل .

وربما كان أحد هذه الأحداث سبب النحافة الجماعية الرهيبة التى أصابت بعض رعاة البقر فى مقابر مير ، أو الأشخاص الذين رسموا على نحتٍ فى سقارة قارنه دريوتون [٨٦] مع النصوص التى تصحبه بوصف عبد اللطيف البغدادى للمجاعة التى أصابت مصر سنتين متواصلتين فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة لعدم وفاء النيل .

والسبب (الثانى) لحدوث أمراض سوء التغذية مع وفرة الغذاء هو سوء الامتصاص ، وأهم أسبابه الإصابة بالطفيليات والديدان ، برهن على هذه الحقيقة الدكتورة وازلين وزملاؤها ، إذ أثبتوا بالبحث والتحليل وجود نقص واضح فى الحديد والزنك والفيتامينات عند المصابين بالديدان [٨٧] .

وذكرت بردية إبرز أسماء عدد من الديدان ، وكشف روفر [٧٧] عن بويضات البلهارسيا البولية فى أنسجة بعض المومياوات. ولكننا لا نعرف شيئاً عن البلهارسيا المعوية التى تفوق الأولى من حيث آثارها على التغذية ، ويمكن التخمين بأنها لم توجد فى الصعيد - كما هى الحال اليوم - بسبب طريقة الرى المتبعة فيه ، وعلى العكس من ذلك فإن الدلتا - بسبب اتساع المستنقعات المنتشرة فيها - كانت بلا شك تكفل لهذا النوع من البلهارسيا بيئة ملائمة .

وقد وجد روفر كبداً واحدةً متليفة ولكنه لم يذكر سبب تليفها ، وهناك بعض صور فى مقبرة ميحو بسقارة تتميز فيها الأشخاص بانتفاخ البطن والفتق السرى وتمدد الصفن كما لو كانوا يعانون من تليف الكبد والاستسقاء .

ويعزز هذه الفكرة رسمُ آخرين فى المقبرة نفسها بثديين كثدى النساء وبأعضاء تناسلية متضخمة تضخماً غير طبيعى ، وهاتان الظاهرتان - أى تضخم الثديين والأعضاء التناسلية - قد تسببها البلهارسيا الكبدية والبولية ، كما يعزز هذا أيضاً قصر هذه المناظر على أشخاص يعملون فى المياه الراكدة كالصيادين وحاملى البردى .

وقد دار حوار طويل حول حقيقة مرض سمى باللغة المصرية القديمة (عاع) تشمل أعراضه - كما وصفتها النصوص - : انتفاخ البطن وألم البطن وخفقان القلب الذى ربما يقصد به عثرة القلب ، وهى أعراض الأنيميا التى تنجم عن

الإصابة بالديدان أو بالبلهارسيا التى هى عادة إصابة مزدوجة : أى بأكثر من دودة واحدة ، وقد أضاف جونكير[٨٨] وشويتهاوزر[٨٩] إلى هذه الأعراض من جانبهما وبدون مبرر البولَ الدمويَّ ، لا لسبب إلا لورود نبذة عن (عاع) بين وصفة لنزف الرحم وأخرى لنزف الشرج ، فأكدا أن وضع العاع بين الشرج والرحم يشير إلى أن المقصود به هو النزف البولى ، وأن (عاع) هو البلهارسيا – مع أن البردية التى وردت بها هذه الفقرة – وهى بردية سحرية وليست بردية طبية بالمعنى الصحيح – لم تتبع أى ترتيب تشريحى .

وأضافا – بجسارة – أن المصريين عرفوا دودة البلهارسيا بانين حجتهم على ورود صفة دواء قيل عنه : «يتعطاه شخص ببطنه دود ، وأن (العاع) هو الذى تسبب فى ظهوره» هذا مع أن النص نفسه يؤكد أن (العاع) هو سبب وجود الدود ، وليس بالعكس ، ولذا فقد ذهب علماء اللغة المصرية أمثال جرابو وفون داينس [٩٠] إلى أن (عاع) كان فى تصورهم روحاً شريرة أو عملاً سحرياً يحدث المرض . ونضيف فنقول : إذا كان المصريون القدامى قد ربطوا حقيقة بين (عاع) والديدان فإن الديدان التى شاهدوها إنما كانت الديدان المعوية التى تسهل مشاهدتها فى الإفرازات وليست دودة البلهارسيا التى لا تكاد ترى وهى مختبئة فى الوريد البابى والتى تبلى بسرعة بعد الوفاة [٩١] .

ولم يرد أى وصف للبلاجرا ، وكان أول من ذكر اسم هذا المرض فى مصر (سونينى) فى سنة ١٧٩٩ [٩٢] حين أشار إلى حب النيل متسائلاً : هل ذلك هو اسم البلاجرا المحلى ويرجع ذلك الخطأ إلى جهله باللهجة المصرية وبحقيقة ما نسميه اليوم حمو النيل أو حب النيل .

أما أول من وصف البلاجرا وصفاً صحيحاً فى مصر فهو (برونربك) فى سنة ١٨٤٧ [٩٣] .

وقد يكون ظهور هذا المرض فى هذا التاريخ نتيجة لدخول زراعة الأذرة الشامية فى مصر ؛ فقد سجل الرحالة فورسكال فى ملاحظاته التى نشرها فى سنة ١٧٦١ أنه شاهد زراعة الأذرة الشامية فى مصر ، وثبت أن إنتاج الأذرة كان ١٣,٣٨٢ طنًا فى سنة ١٨٣٣ : أى قبل وصف (برونر) بخمس عشرة سنة ، الأمر الذى يشير إلى أن الأذرة الشامية دخلت مصر فى القرن السادس عشر الميلادى آتية من مركز زراعتها الأصلى بأمريكا الوسطى .

ومن أمراض سوء التغذية الأخرى : ذكرت بردية إبرز (رقم ٣٥١) مرضاً سمى (شارو) ، وكان هذا المرض يعالج بوضع عصارة الكبد على العين ، وبما أن اليونانى ديوسقوريدس وابن سينا وابن النفيس وصفوا هذا العلاج نفسه لغشاوة الليل ، بالإضافة إلى أن الكبد تحوى كميات كبيرة من الفيتامين (أ) الذى له فائدة معروفة فى علاج غشاوة الليل - فإنه يمكن الأخذ بالرأى القائل : إن مرض (شارو) كان مرض غشاوة الليل الناتجة عن نقص فى فيتامين (أ) ثم إنه ورد اسم مرض آخر هو (ونم - ن - سنف) ، ومعنى هذه العبارة (آكل الدم) ، وهذا المرض يصيب فم المعدة وداخل الجسم واللثة ، وقد ترجمت هذه العبارة (بالأسقربوط) .

أما الكساح فإنه لم يذكر له وصف ، كما أننا لا نعرف أية مومياء مصابة به من بين آلاف المومياوات التى تفحصها العلماء بالتشريح أو الأشعة السينية . ولكن روفر نشر صوراً لأناس مشوهين ونسب تشويههم إلى هذا المرض ؛ كما أن أطراف إحدى التابعات على زورق من كنز توت - عنخ - آمون ملتوية وكأنها مصابة بهذا المرض .

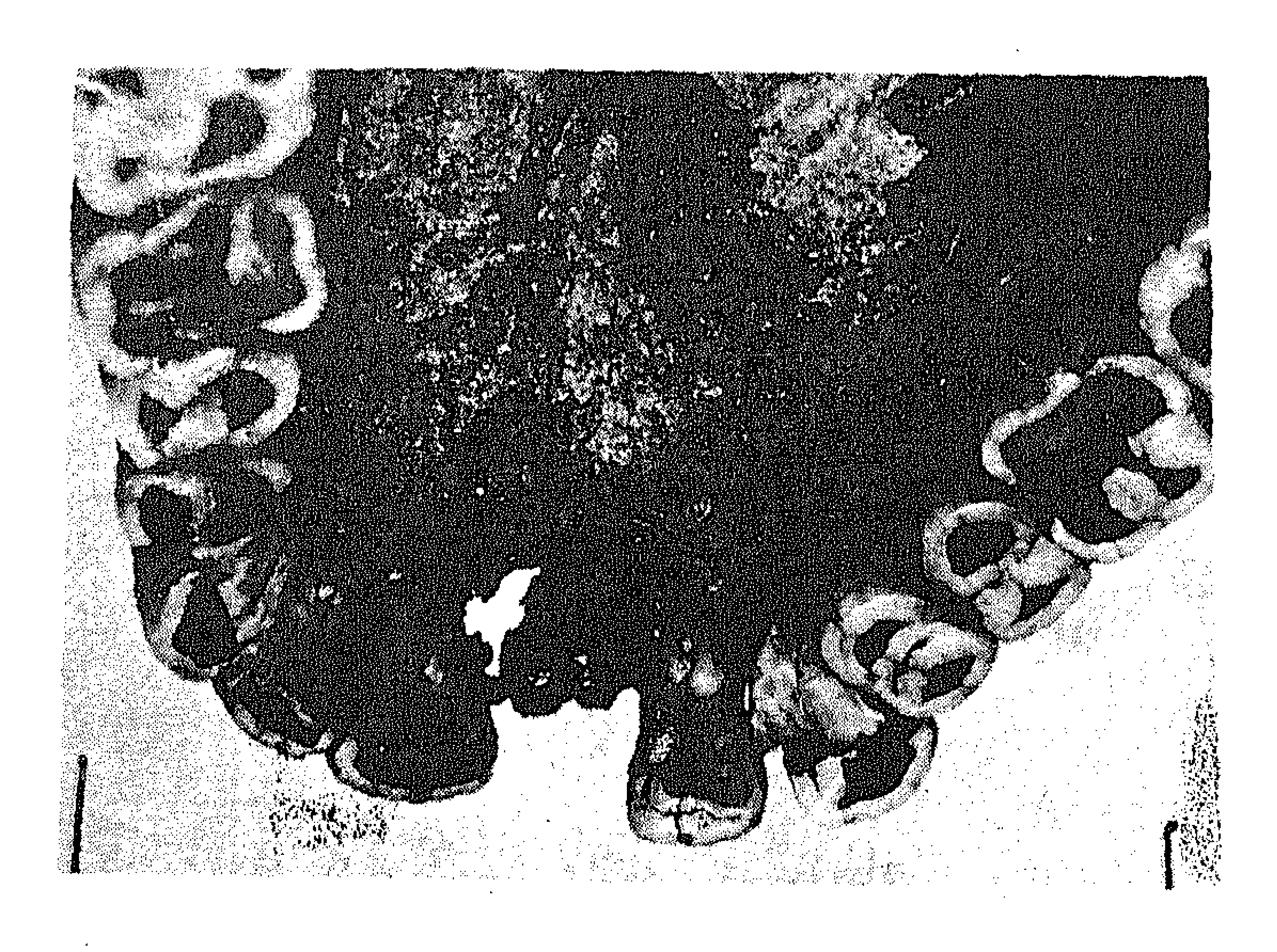
ومن الآفات المرتبطة بالتغذية والتى قد ترجع إلى نقص الكالسيوم أو الفيتامين د ، أو إلى تناول كميات كبيرة من السكر أو طعام ليّن - تسوسُ

الأسنان ، وهذا المرض من القدم بحيث وجد فى أقدم سلالات القرود الشبيهة بالإنسان التى ترجع إلى ما قبل تاريخ البشر . غير أنه أيضاً من أمراض الحضارة التى لم تتفش إلا عندما انتقل الإنسان من حياة الصيد والجمع إلى حضارة الزراعة والاعتماد على البذور ، وببردية إبرز وصفة الحشوسنة مسوسة (إبرز٧٤٣) ، إلا أن تفحص الجثث بيّن أن التسوس كان نادراً فى الدولة القديمة فى حين انتشرت البيوريا والتآكل بالاحتكاك والخراريج السّنخية والالتهابات حول الأسنان . ولم يَتَفَشَّ التسوس إلا خلال العصور القريبة وبين الطبقات الثرية نتيجة لتناول المأكولات اللينة والحلوى . وكان التسوس يعالج على حسب ما ورد ببردية إبرز - بحشو الأسنان المصابة بخليط من مادة راتنجية وأملاح معدنية ، ووجدت بعض الأسنان المتخلخلة مربوطة بجاراتها بسلوك من الذهب أو الفضة (شكل١٢) .

وآخر مظهر من مظاهر نتائج سوء التغذية التى أعرض لها تضخم الغدة الدرقية .

وهذه الآفة لم يصفها أى طبيب زار مصر حتى علماء حملة نابليون ، وأول ذكر لها جاء فى مقال الأستاذين الدكتورين مصطفى عمر ودولبى (٩٤) ، وأول من فطن إلى استيطانها فى أجزاء من مصر هو أستاذنا جميعاً الدكتور على باشا إبراهيم فى سنة ١٩٣٢ (٩٥) ، أما قدماء المصريين فيبدو أنهم جهلوا حتى مجرد وجود الغدة الدرقية ، فلم يذكروا لها اسماً ، غير أن طريقة النحت العالى المستدير التى مارسها الفنانون فى العهد البطلمى أبرزت الأعناق بصورة توحى بوجود «جواتر» ، مما أدى إلى جزم يازون (٩٦) بأن كليوباترا كانت مصابة به وهو - بلا شك - مخطئ فى هذا التشخيص ، إذ إن جميع فراعنة ذلك العهد صوروا بهذه الطريقة نفسها .

وهذا مثال آخر لخطر التسرع كاستنتاج وجود مرض من مجرد خروج رسم عن التقاليد المعهودة ، وقد أشرنا آنفا إلى أمثلة أخرى مرد انحرافها إلى اختلاف العقائد



(شكل ١٢) سنة ربطت بجارتيها بوساطة سلك من الفضة

والأنماط والأهداف . ولعل ذلك يدعونا إلى الاعتماد أولاً وقبل كل شيء على تفحص البقايا البشرية نفسها ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

أما السبب الأخير لسوء التغذية برغم كثرة أنواع الطعام فقد يكون التحريم الديني أو القبلي ، وهذا ما تناولناه في الباب السابق .

الباب الرابع

محرمات اليهود والنصارى والجاهلية

علق الأستاذ الدكتور عبد الحميد زايد [٩٨] على قرار للجنة التوراة البابوية بالفاتيكان بما مفاده أن نسبة الأسفار الأولى إلى موسى لا تتضمن بصفة قاطعة الاعتقاد بأن سيدنا موسى خط بيده أو أملى على كتابه نصوص هذه الأسفار ، وأضاف : «أن الكتب الخمسة المذكورة قد تعدلت نصوصها مع مرور الزمن بحيث أضيف إليها نصوص ، وزيدت عليها تفسيرات ، وتحولت تعبيرات قديمة إلى أخرى مستحدثة .

ولذا فإنه من الخطأ أن ينظر إلى تعاليم التوراة على أنها صبت فى قالب نهائى مرة وإلى الأبد ؛ إذ إن الأسفار التى تضمنتها صنفت فى مناسبات متتابعة ومتباعدة تبعاً لوحى سائر الأحداث التى مر بها العبرانيون فى خلال جولاتهم ، فقد أملى سفر التكوين وهم لا يزالون قلة تعيش حياة الرحل لم تستقر تقاليدهم بعد ، ثم مكثوا

فى مصر قروناً وعاصروا حضارتها ، وتأثروا بفلسفتها ، وعندما خرجوا منها سنت لهم فئة الكهنة واللاويين القوانين تبعاً للظروف والأحداث : فأملى أولاً سفر الخروج ، وبعده سفر اللاويين ، وتوج كلَّ هذا سفرُ التثنية أى الإعادة ، وهو الذى صب فيه موسى - بلسانه - القوانين السابقة جميعاً فى شكل موحد .

وهذا التتابع الزمنى حقيقة قلما أخذت فى الاعتبار عند النظر فى التحريمات التى تثاقلَتْ على اليهود حتى أصبح عددها يُربى على المئات ، وهى حقيقة تفرض علينا متابعة التحريم زمنيًّا حتى ندرك تطوره :

كان أول تحريم ورد فى التوراة خاصًّا بالدم : «ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض . كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع . غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط» (تكوين : ٩ : ٢) .

أبيحت إذن الحيوانات كلها دون أى استثناء ، وكل أجزائها ، حاشا الدم ، وهذا السبب دينى أوضحه سفر التثنية (١٢ : ٢٣) : ؛ لأن الدم هو النفس فلا تُؤكَل مع اللحم» ، وكذلك سفر اللاويين (١٧ : ٨) : «لأن نفس الجسد هى الدم فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم» ، وأيضاً : «وكل إنسان من بنى إسرائيل . . . يصطاد صيداً . . . يسفك دمه ويغطيه بالتراب ؛ لأن نفس كل جسد دمه هو بنفسه (لاويين ١٧ : ١٣ - ١٥) ومعنى كل هذا أن الدم هو الروح ، وأن الروح ملك لله ، ويجب أن تعود إليه .

ومما يزيد التوكيد على أن الدم لم يحرم لنجاسته الذاتية ، وإنما ليحفظ لله لقداسته - أنه كان يرش على الهيكل ، ويطلى به القائمون بالشعائر القربانية : «ويذبح العجل أمام الرب ويقرّب بنو هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديراً على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع» (لاويين ١ : ٥-٦) ، وكذلك :

«وأخذ موسى من دمه وجعله على شحمة أذن هارون اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى (لاويين ٨ : ٢٢ - ٢٥).ويبدو أن تقديس الدم إنما كان من بدع العبرانيين ؛ فإن المصريين القدامى لم يحرموه ولم يقدسوه ، وتشير إلى عدم تحريمه عبارة فى بردية إبرز الطبية (رقم ١٩٨) تشبّه فضلات أمعاء مريض بالدم المطهو ، فتنوه بأن الدم كان يطبخ ويُؤكل ؛ كما أن مقبرة (بتاح - حتب) بسقارة تحوى رسماً لكاهن طبيب يشم دماً يقدمه إليه قصاب ، ويقول له : «إنه طاهر».

أما الإغريق فقد ظن البعض منهم أن الدم يقتل خنقاً (هيردوت ، ٣ : ١٥) ، وروت أساطيرهم أن (يازون) قائد (الأرجونوت) شرب دم الثيران عندما أراد الانتحار [٩٩] .

جاء يعقوب بعد نوح بزهاء أربعمائة سنة [١٠٠] ، وصادف أن قابل شخصاً لا يعرفه فى خلال سفر ، وصارعه حتّى طلوع الفجر ، ولما تعسر على هذا الشخص قَهْرُ يعقوب ضرب حق فخذه فانخلع ، وقال : أطلقنى ؛ لأن الفجر طلع ! فقال يعقوب : لا أُطلقك إن لم تباركنى . . . ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ ؛ لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا» (تكوين : ٣٢ : ٢٤ - ٣١) .

ثم حرمت أجزاء أخرى من الذبائح على التتابع : فحرم شحم الثور والكبش والماعز ، وحلل «شحم الميتة والمفترسة لكل عمل سوى أكله» (لاويين ٢٧ : ٢٢ - ٢٦) ؛ لأن الشحم المحرم كان يحفظ لله على حسب فرائض عيّنها سفر اللاويين لمختلف أنواع القرابين التّى كانت تقدم فى مناسبات محددة ، وهى ذبيحة الإثم ، وذبيحة الخطيئة ، وذبيحة الملء ، والمحرقة ، والتقدمة .

ومن المعروف ما كان للتثاقف المتبادل بين مصر واليهود ، وللاحتكاك (اليومى) بينهم من النفوذ فى تكوين أدب العبرانيين وفلسفتهم حتّى أناشيدهم الدينية [١٠١] ،

ولعلنا ندرك مدى اقتباسهم للعادات المصرية إذا قارنا طقوس القرابين بين الشعبيين ، وقد وضعناها فى جدول مقارن .

الخنزير عند العبرانيين :

وإذا تدرجنا الآن إلى القوانين المحرمة للخنزير لم نجد لها ذكراً قبل خروج اليهود من مصر ، وهذا يجيز التساؤل : «هل كان لمجاورتهم المصريين أثر فى هذا ؟ فقد عاشوا فى منطقة (زوان) بالقرب من تانيس (صا الحجر) ، وهى منطقة ظل سكانها يعبدون (ست) ويقدسون حيوانه الخنزير منذ فجر التاريخ حتى آخر عصر الأسر ، فهل كان سبب نفور اليهود منه رغبتهم فى تمييز أنفسهم عن أسيادهم المصريين ، وبغضهم لعبادة الأوثان ، والحيوان ؟

ونجيب أن الخنزير لم يكن إلا واحداً من جمهرة التحريمات التى شملت الآتى :

من الأنعام : مالا يستوفى شرطين معاً ، هما : أن يجتر ، وأن يشق الظلف : فسمح بالبقر والضأن والماعز والإبل والظبى واليحمور والوعل والرئم والتيتل والمهاة ، وحرم الجمل والأرنب والوبز والخنزير (تثنية ١٤ : ٣) .

ومن الأسماك : سمح بأكل ما له زعانف وحرشف ، وحرم غيره كالربيان (الجمبرى) والسرطان (أبو جلمبو) .

ومن الطيور : حرم النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق والشاهين والغراب والظليم والسأف والباز والبوم والكركى والبجع والقوق والرخم والغواص واللقلق والببغاء والهدهد والخفاش ، وكل دبيب الطير الماشى على اربع ، وسمح بما له كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض . (لاويين ١١ : ٢١) .

كما حرم أيضاً كل ما يمشى على كفوفه ، أو على بطنه ، وابن عرس ، والفأر

قرابين المصريين (هيردوت ٢ : ٣٨ – ٤٠)	قرابين العبرانيين
يخصصون للتضحية أنعامهم النقية ذوات اللون الأحمر ، ويعتقدون أن تقديم حيوان ذى شعرة واحدة سوداء أو بيضاء خطأ جسيم[٢٧]	أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لاعيب فيها فتعطوها ألعازار الكاهن .. وتذبح قدامه (عدد : ١٩ : ٢٠)
لذا فإنهم يفحصونها بهذه الكيفية .. فإذاكان الثور طاهراً من كل الوجوه يضع عليه علامة ، أما من يضحى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت	لاتذبح للرب إلهك ثوراً أو شاة فيه عيب .. لأن ذلك رجس لدى الرب إلهك (تثنية ١٧ ، ١) إذا كان فيه عيب .. فلا تذبحه للرب إلهك (تثنية ١٥ : ٢١)
يوقدون ناراً	يجعل بنو هارون الكهنة ناراً على المذبح (لاويين ١ ، ١ – ١٧)
ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله	ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للتكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب (لاويين ١ ، ١ – ١٧)
وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ثم يمطرون على الرأس وافر	ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطـع . ويرتب بنو هارون الكهنة القطع من

قرابين المصريين (هيردوت ٢ : ٣٨ – ٤٠)	قرابين العبرانيين
اللعنات .	الرأس والشحم فوق الحطب (لاويين ١ ، ١ - ١٧) وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيًّا أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية (لاويين ١٦ : ٨ – ١٠)
عندما يسلخون الثور وينتهون من صلاتهم يخرجون المعدة على حين يتركون الحوايا والدهن داخل الجسم ، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العجز والأكتاف والرقبة ، وبعد ذلك يملئون بقية جسم الثور خبزاً طيباً و.. فإذا ملئوا الجوف بذلك فإنهم يسكبون عليه زيتاً وافراً ثم يحرقونه .	وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ، ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقة وقود (لاويين ١ ، ١ – ١٧)
وعندما ينتهون من اللطم يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبائح .	والباقى من التقدمة هو لهارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب (لاويين ٢ : ١٠)
وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونه .	لا تأكلوا جثة ما . تعطيها الغريب الذى فى أبوابك فيأكلها أو يبيعها لأجنبى .

والضب والجرذون والورل والوزغة والغطاية والحرباء وكل ماكثرت أرجله (لاويين : ١١ : ٢٩) .

وعلى العكس : سمح بالجراد والدبا والحرجوان والجندب (لاويين ١١ : ٢١ : ٢٢) .

ومن الغريب أن مشرّع اليهود نجّس كل من يمسّ حيواناً نجساً (لاويين ١١ : ٢٤) وأمر بكسر «كل متاع خزف وقع فيه» (لاويين ١١ : ٣٣) فى حين أنه استثنى من هذا الحكم «العين والبئر التى يقع فيها (لاويين ١١ : ٣٦) ، مع أن خطر العدوى منهما إذا ما ألقى فيهما بجثث مصابة بمرض منقول - يفوق خطر التلوث من مجرد لمس جثث الحيوانات ! وقد يكون السبب فى استثناء العيون عزّتها فى المناطق التى مرّ بها اليهود بعد خروجهم من مصر ، وضرورة الانتفاع بكل ما يوجد منها . ولنذكر فى هذا الصدد أن القدامى كانوا يؤلهون العيون والينابيع والآبار ، ويعينون لها الجوارى . .

ولنعد إلى الخنزير : قد نستغرب تخصيص الخنزير بأبشع صور النجاسة ، وقد بينا الأسباب التى دعتنا إلى الشك فى أن سبب هذا الحكم الصارم هو إصابته بمرض التركينوز ، وأبدينا ما يراودنا من أنه يجوز رده إلى تقديس هذا الحيوان ، عند قوم ، وإلى رغبة قوم معاد فى التميز عنهم واستخلصنا حجتنا من أساطير المصريين : هل نجد عند اليهود اختلافاً بين فئة مقبلة على هذا الحيوان وفئة تنهى عنه ؟

والجواب أن مظاهر هذا الاختلاف توجد فى التوراة نفسها ، حيث عبر النبى (إشعيا) عن غضب الله من هؤلاء اليهود الذين يقيمون شعائر تخالف الشعائر السائدة ، ويحسبون أنفسهم أقدس من غيرهم :

وإلى القارئ ماورد فى سفر إشعيا (٦٥ : ٢ - ٥ و٦٦ : ١٧ - ١٨) ! بسطت

يدى طول النهار إلى شعب متمرد سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره ، شعب يغيظنى بوجهى دائماً يذبح فى الجنات ويبخِّر على الآجرّ. يجلس فى القبور ويبيت فى المدافن ، يأكل لحم الخنزير وفى آنيته مرق لحوم نجسة ! يقول : قف عندك : لا تدن منى لأنى أقدس منك . هؤلاء دخان فى أنفى نار متقدة كل النهار !

وقد وردت أيضا فى النص نفسه هذه العبارة :

«الذين يقدسون ويطهرون أنفسهم فى الجنات وراء واحد فى الوسط آكلين لحم الختزير والرجس والجرذ يفنون معاً» .

إن هذه النصوص تتيح وضع تحريم العبرانيين للخنزير فى إطار تضارب الانتماءات والأديان ، وهو الإطار الذى أشرنا إليه نفسه ونحن فى صدد الصراع بين أتباع (أوزيريس) وأتباع (ست) .

المحرمات عند النصارى :

كاد مثل هذا التضارب السابق نقاشه يحدث فتنة فى صدر المسيحية ، عندما اعتنق بعض اليهود والوثنيين الدين الجديد ، فخشى المتنصرون من اليهود التنجسَ من هذا الاختلاط وبصفة خاصة عندما بشر بطرس الرسول برفع كل خطر سابق .

«ولما صعد بطرس إلى أورشليم (القدس) خاصمه الذين من أهل الختان (اليهود) قائلين : إنك دخلت إلى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم ؛ فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلاً :

أنا كنت فى مدينة يافا أصلى ، فرأيت فى غيبة رؤيا إناءً نازلاً مثل ملاءة عظيمة مدلاة بأربعة أطراف من السماء ، فأتى إلىّ فتفسرت فيه متأملاً فرأيت دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وسمعت صوتاً قائلاً لى : قم يابطرس اذبح وكل ، فقلت : كلا ياربّ ، لأنه لم يدخل فمى قط دنس أو

نجس ؛ فأجابني صوت (ثانيةً) من السماء : ما طهره الله لا تنجسه أنت ! (أعمال الرسل : ١١ : ٢-٩) .

ولكن بطرس وجد نفسه مضطرًا إلى مجاملة اليهود المتنصرين ، فمنع عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق (أعمال الرسل : ١٥ : ٢٨ - ٢٩) .

وقال يعقوب الرسول : «ولذلك أنا أرى ألّا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم ، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم ؛ لأن موسى منذ أجيال قديمة له فى كل مدينة من يكرز به ؛ إذ يقرأ فى المجامع كل سبت (أعمال الرسل : ١٥ : ١٩ - ٢١) ، ولكن هذا التحريم لم يراعَ ، ولم يمتنع النصارى عن أى طعام ! .

ومن ثم فإن الخنزير لم يحرم على النصارى ، بل إننا نجدُ - على العكس - بعض الطوائف الغنوسطية ، وهى طوائف أخذت بأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية توحد بين المسيح والإله ست الذى كان يرمز إليه بالخنزير [١٠٢] وإن كان هذا القول غير أكيد .

ولكن تحريم الخنزير بسبب العادات بين المتجاورين والمحاكاة بين المتعايشين ولصعوبة إزالة التقاليد إذا ما تأصلت ورسخت - لا يزال تاركاً آثاراً واضحة بين بعض النصارى إلى يومنا هذا مثلاً : فى الحبشة ، وبالمثل فإن التحريمات التقليدية الأخرى تشاهد بقاياها اليوم .

من هذه المظاهر تحريم اللحوم والمنتجات الحيوانية فى خلال أيام الصيام التى تُربى عند الأقباط على مائتى يوم فى السنة مع استثناء السمك الذى حرم ثمانية وخمسين يوماً فقط . ومما قد يكون ذا مغزى خاص أن ثلاثة أيام من أيام تحريم السمك تسمى أيام (يونان) ، وهو الذى ابتلعه حوت ثلاثة أيام على حسب ما ورد فى التوراة .

وقد كان لمجاورة الأقباط للمسلمين أثران عكسيان ، يتمثل الأول : فى التميز عن عادات المسلمين ؛ إذ نرى أقباط الحبشة يمتنعون عن أكل لحم الجمال ؛ لأن

أكله من مميزات المسلمين ؛ والأخر : فى رواية وردت فى مذكرات الرحالة الفرنسى سونينى [١٠٣] مؤداها أن بعض من اتصل بهم من المسيحيين فى صعيد مصر دعاه ليشاهد حيواناً غريباً يُربّى فى دير كاثوليكى فى نقادة ، فكم كانت خيبة أمله عندما وجد أن هذا الحيوان الفريد لم يكن سوى خنزير !

المحرمات فى الجاهلية :

ورث العرب فى عصر الجاهلية عن جمهرة الشيع والطوائف التى اختلطوا بها أو بدافع عقائدهم الذاتية تحريمات يصعب علينا الآن حصرها ، وإن كنا على علم ببعضها . وقد أوضح كتاب الله أن ما حرم على اليهود إنما حرم عقاباً لهم على ما اقترفوه .

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظُفُر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ، فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين) . الأنعام / ١٤٦ - ١٤٧ .

(وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سنجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) الأنعام/ ١٣٨ - ١٣٩ .

هذا إن هؤلاء الذين كانوا يخدمون الأصنام كانوا يخصون لأنفسهم ما كانت تحمله الأنعام فى بطونها حاشا الميتة منها .

ثم إن عرب الجاهلية كانوا يعتقون بعض البعير ، سجل منها ما أطلق - البحيرة والسائبة والوصيلة والحام :

والبحيرة هى الناقة التى شقت أذنها ، والسائبة هى التى كانت تعتق لنذر ، أو لأنها ولدت عشرة أبطان كلها إناث ، فكانت لا تركب ، ولا يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف ولا تمنع عن ماء أو كلأ حتى تموت ، والحام خيار الإبل .

وقد أكدت آيات كريمة عدم جواز الأخذ بهذا :

(ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (الأنعام/ ١٤٢) .

(ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) (المائدة/ ١٠٣) .

وقد حددت المحرمات وهي قليلة : (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) (المائدة/ ١) (حُرمت عليكم الميتةُ والدم ولحم الخنزير وما أهِل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السُبع إلا ماذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) (المائدة/ ٣) .

وبهذا حصر التحريم في التالي :

١ - ما يصطاد في مناطق الحرام وهذا لأن الصيد محرم فيها .

٢ - ما أهل لغير الله به وما ذبح على الأصنام ؛ لأن عرب الجاهلية اعتادوا نحر الذبائح على هياكل الأصنام ، فأمر الله بتقديم الذبائح له بأن يذكر اسمه تعالى عليها : (ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه ، وإنه لفَسق) (الأنعام/ ١٢١) .

٣ - ما اقتسم بالأزلام لأن الأزلام حرمت .

٤ - الدم لأن عرب الجاهلية كانوا يطبخون الدم ويأكلونه ، وكانوا يسمون هذا الطعام الفصيدة .

٥ - مالم يذبح ولم يسفك دمه ، وهذا لسببين هما : أن اسم الله لم يذكر عليها ، وأن الدم مازال فيها ، إلا أن اصطيد بحيوانات مدربة على الصيد ، ثم سكب دمها : (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلِّبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب) (المائدة/ ٤) غير أن الخالق الرحيم لم

يبتغ من التحريم تعجيز المؤمنين : (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) (البقرة/ ١٧٣) .

وقد تكرر هذا السماح فى أكثر من آية كريمة ، الأمر الذى يشير إلى أن العبرة فى التحريم ليست نجاسة ذاتية فى المحرم كما هى فى الأديان الهندية التى تعد مجرد لمس المحرم تنجيساً حتى لو كان اللمس مصادفة ، بقدر ما هى ميثاق بين الخالق تعالى والمخلوق لامتحانه : كمنع آدم عن الاقتراب إلى شجرة بعينها فى الجنة .

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (الأعراف/ ١٩) .

كما أن الطاعة واجبة دون تساؤل .

(يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم) (المائدة/ ١٠١) . وبهذا يتخذ انتهاك التحريم شكلاً خطيراً ، هو التحدى السافر والعصيان المعلن ، وهذا ما لا يغفره دين .

غير أن الخيال الشعبى أضاف محرمات استنبط مبادئها من القياس ، وقد ورد العديد منها فى كتابات أمثال الدميرى والقزوينى وغيرهما ، حيث نقرأ أن الضفادع نُهِيَ عن قتلها ؛ لأن الله جعل نفيقهن التسبيح : «يا مسبح بكل لسان ومذكور بكل مكان» (الدميرى : ١ : ٦٤٨) ، والهدهد ؛لأنه كان دليل سليمان على قرب الماء (القزوينى : ٢٨٦) ، والعلق ؛ لأنه دم خارج من الرحم كالحيض (الدميرى : ٢ : ٧٤) ولعل هذا لخلط بين العلق وهو دود والعلق وهو الجنين قبل ظهور سماته .

ولنستخلص مما تقدم التأويلات المختلفة التى نزح إليها علماء التأريخ والنفس وعلم السلالات لتفسير ظاهرة التحريم وقد ذكرنا فيما سبق بعضها :

١ - الرمزية : ومن هذا أن الجز الذى اشرطه اليهود لإباحة اللحوم يرمز إلى

حياة التأمل والتفكير التى ينبغى على المؤمن سلوكها .[١٠٤]

٢ - الاستقذار والاستخباث .

٣ - الضرر للصحة .

٤ - فرض الانضباط .

٥ - امتحان الطاعة .

٦ - رسوخ رواسب من العقائد والشعائر الدينية ومنها ذكرت عادة آسيوية قديمة تفرض نثر قطع من اللحم المسلوق فى اللبن على سطح الحقول لاسترضاء الإلهة إشطار ، على أنها الأصل فى تحريم اليهود طهو اللحم باللبن أو منتجاته .

٧ - الرغبة فى التميز وابتكار أنماط تكفل التمييز وتقويه : ومن هذا القبيل حرص محاكم التفتيش على تعليق شىء من لحم الخنزير فوق رءوس القضاة لتأكيد عدم انتمائهم إلى الدين اليهودى .

وقد ذهب إلى هذه النظرية علماء اليهود لتبرير محرماتهم فاليهودى - على حد قول رب كوهين [١٠٥] ليس على دينه أن يميزه عن غيره فحسب ، بل عليه أن يذكره فى كل لحظة من حياته أنه ينتمى إلى العنصر اليهودى والديانة اليهودية . وعلى اليهودى أن يتميز - ليس بمجرد عقيدته - ولكن كذلك بسلوكه ، وأن يبتدع - حتى فى أنشطة الحياة اليومية - مظاهر تظل تذكره بيهوديته .

٨ - الإشراط فى الطفولة : ويطلق لفظ الإشراط على حدوث ظاهرة ما استجابة لمنبه لم يكن يثيرها فى الأصل . وهذا بسبب تكرار تتابع - اتفاقاً - المنبه والظاهرة ، ولهذا السبب يضحى عدد من أصبحوا غير مؤمنين بعقائد صباهم - ينفرون من محرماتها للارتباط المحكم فى أذهانهم بين المحرم وبين نجاسته . وقد يصل الاستخباث إلى التقيؤ والإسهال !

ومن الأمثلة المأثورة للإشراط ما رواه غاندى من أنه أراد أكل اللحم عساه يحصل منه على قوة الطغاة الإنجليز ، فتناول ذات ليلة شيئاً من لحم الماعز ، فبات طوال الليل يتقيأ ، ويعانى مغصاً شديداً ، وكابوساً يتخيل فى خلاله أن معزاة حية تثغر فى أحشائه !

الباب الخامس

حكم بعض المأكولات الأخرى

الخيل . الحمير . والبغال . والقطط . الكلاب . الثعابين . الحشرات . البيض . اللبن . المحرمات غير الحيوانية . النباتات . الملح .

الخيل :

انتشرت عادة أكل لحوم الخيل من بلاد المغول فى وسط آسيا ، حيث نشأ هذا الحيوان ، إلى غربى أوربا فقد قطن بقلب القارة الآسيوية رعاة هيئوا حياتهم حول هذا الصديق الأليف ، واستخدموه كما استخدم العرب البعير ، فأفادوا من سرعته فى القتال ومن لحمه وجلده ولبنه ، واعتمدوا عليه فى السلم والحرب .

ولجمٍّ حبهم له ابتدعوا الأساطير حوله : فزعم الياقوت أن الحصان هدية إله خيرٍّ علَّمهم - ضمن ما علمهم - فن تخمير لبنه لصناعة مشروبهم المفضل

(القمز) ، واعتادوا إذا نفق حصان رفع عظامه ووضعها على منصة تكريماً له ، وإذا مات أحد رجالهم ، دفن حصانه معه فى قبره ، وتفانوا فى أكل لحمه وتقديمه فى المآدب والأعراس على أنه طعام فاخر ولذيذ .

وقد أولع العرب مثلهم بتربية الخيل واقتناء أثمنها واستيلاد سلالات أصيلة منها ، وقالوا عنها العجب العجيب ، أورد منه الدميرى فى كتابه «كتاب الحيوان الكبير» روايات تفخمها وتبين مكانتها عندهم .

فقد روى – على سبيل المثال – أن معاوية مر بأبى ذر رضى الله عنهما وهو يمرغ فرساً فسلم عليه ثم قال : يا أباذر ، ما هذا الفرس ؟ فقال : هذا فرس لا أراه إلا مستجاب الدعاء ! قال : وهل تدعو الخيل وتجاب ؟ قال : نعم ، ليس من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ربه فيقول : رب ، إنك سخرتنى لابن آدم وجعلت رزقى فى يده ، اللهم فاجعلنى أحب إليه من أهله وولده (الدميرى١ : ١٥٤) ففسر تفسيراً شاعرياً تفضيل الخيل على الأهل .

كما ذكر الرواية التى مفادها أن أول من ركب الخيل كان إسماعيل عليه السلام ، ولذلك سميت بالعراب ، وكانت قبل ذلك وحشية ، ولذلك أسند إلى النبى ﷺ القول : «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل» (الدميرى : ١ : ٤٤٢) .

وروى الترمذى إسناداً ضعيفاً عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : «جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : «إنى أحب الخيل فهل فى الجنة خيل ؟ فقال ﷺ : «إن دخلت الجنة أتيت بفرس من ياقوتة لها جناحان فتحمل عليها فيطير بك فى الجنة حيث شئت» (الدميرى : ١ : ٤٤٣) .

وفى رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال : «لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب : إنى خالق منا خلقاً أجعله عزة لأوليائى ومذلة

لأعدائى وجمالاً لأهل طاعتى ؛ فقالت الريح : اخلق يارب ، فقبض منها قبضة فخلق منها فرساً ، وقال جل وعلا : خلقتك عربيًّا ، وجعلت الخير معقوداً بنواصيك والغنائم على ظهرك ، وبوأتك سعة من الرزق ، وأيدتك على غيرك من الدواب ، وعطفت عليك صاحبك ، وجعلتك تطير بلا جناح ، فأنت للطلب وأنت للهرب ، وإنى سأجعل على ظهرك رجالاً يسبحونى ويحمدونى ويهللونى ويكبرونى (الدميرى : ١ : ٤٤١) .

أما الأفريقيون فقد اختلفوا فى شأن أكل الخيل ، ولا داعى للإطالة هنا فى ذكر عاداتهم المختلفة واحدة واحدة ، فقد أفرد لها سيمونز [١٧] باباً طويلاً ،

وفى أوربا استحسن لحمها ، ويبدو أن الأوربيين ربطوا بين هذا الحيوان النبيل وبين الإله الوثنى (أودين) ، فنفر المسيحيون منه وحرم لحمه عليهم تدريجا إلى أن أصدر البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣٢ أمراً يحرمه نهائيًّا . ومن جراء هذا التحريم امتنعت بعض شعوب آيرلندا عن اعتناق الدين المسيحى مدة طويلة . [١]

ولكن مثل هذه الأوامر وما تبعها لم تمح هذه العادة محواً تامًّا ، وظل الأوربيون يستسيغون هذا الطعام ، ولا سيا فى آيرلندا حيث شملت طقوس التتويج جلوس الملك فى حمام من فوق فرس ذبح لهذه المناسبة ، ثم اشتراكه مع قومه فى أكل لحمه وشرب شىء من مرقه .

ثم مر هذا اللحم بحقبة فتور ازدُرِىَ فى أثنائها ، وعد غير ملائم للموائد المحترمة إلى أن تجدد الاعتماد عليه فى خلال مجاعات القرن الثامن عشر ، وعرفت مزاياه ، واعتاد جراح الحملة الفرنسية فى مصر - بارون لارى - تغذية مرضاه به ، واجتهد بعض المفكرين فى القرن التاسع عشر بإعادة ترويجه . ومن مظاهر حملتهم إقامة مأدبة (حصانية) سنة ١٨٦٥ فى فندق من أفخر فنادق باريس لم يقدم خلالها من الأطباق سوى ما صنع من لحم الخيل المطهو فى أشكال مختلفة ، ثم افتتحت

جزارات خاصة لبيع هذا النوع من اللحم وحظر بيعه فى غيرها ، وأنشئت جمعية لتشجيع أكله ، ولا يزال قوم يعتقدون أنه علاج شافٍ للسل والهزال والأنيميا وما إليها من الأمراض .

واتفق أغلب الفقهاء على السماح بأكل الخيل استناداً إلى حديث شريف فحواه أن الرسول ﷺ رخص فيها يوم خيبر (صحيح البخارى[١٠٦] : ٥ : ١٧٣) ، كما ورد فى الصحيحين :

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها» وفى رواية «ونحن بالمدينة» وفى سند الإمام أحمد «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها نحن وأهل بيته» (الدميرى : ٢ : ١٦٤) .

وذهب قلة إلى أنها مكروهة إلا أن كراهتها عند مالك تنزيه لا كراهية تحريم ، واستدلوا بما فى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه «أن النبى ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لقوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) (النحل/٨) وقال صاحب الهداية فى الحنفية : الآية خُرِّجت مخرج الامتنان والأكل من أعلى منافعها ، والحكيم لا يترك الامتنان بأعلى النعم ويمتن بأدناها» (الدميرى : ٢ ، ١٦٤) .

أما فى مصر فإن الخيول لم تعرف إلا بعد عصر الهكسوس ، وربما كانت حداثتها النسبية السبب فى عدم تأليهها ، ومن ثم فى عدم ورود أى حظر عنها ، ولم تؤكل إلا فى عهد المماليك : فقد روى المقريزى [١٠٧] أن الأمير بكتاش كان يذبح لسماطه فى دمياط (يوميًّا) خمسين رأساً من الغنم وفرساً لابد منه ، غير أن هذه العادات الدخيلة لم ترسخ .

الحمير والبغال :

يثير أكل الحمير والبغال دهشتنا بل ونفورنا ، وبصفة خاصة عند الاطلاع على «ملف» الحمير التاريخى : فنى مصر القديمة أشرنا إلى أن الإله حور نجل أوزيريس والقائم بثأره بعد أن انتصر على ست - ألتى به وبرهطه فى نهر النيل فى شكل حمير ، وأن هذه الرواية التى ترمز إلى حدث تاريخى -كانت السبب فى عد الحمير ضمن الكائنات المنتمية إلى ست ، وفى نيلها ماناله هذا الإله من مقت المصريين وكراهيتهم .

ولنذكر حواراً مقتطعاً من مؤلف لبلوتارخ [١٠٨] نسب إلى إيزوب هذا الحديث :

«إذا علمت أن صناع المزامير يستبدلون عظام الحمير بعظام الغزال زاعمين أن صوتها أرق وأرخم عجبت من أن يكون للحمار - مع ما هو عليه من الفظظ ومع بعده كل البعد عن عرائس العلوم والفنون - أن يكون عظمه فى هذه الرقة والرخامة» . فأجاب نلوكسينوس : «حقًّا إن هذا ما يأخذه سكان بوزيرس [١] علينا نحن سكان نوكراتس [٢] وهو أننا نجعل من عظام الحمير مزامير فى حين أن مجرد سماع الأبواق مقت عندهم لتشابه أصواتها ونهيق الحمير . ألا تعلم أن الحمار مقيت عندهم أبغض المقت بسبب (تيفون) ؟

ولكن القدامى عدّوا لحم الحمير من الطيبات : فقد حرص الإغريق على إضافته إلى (السجق)١٠٩ .

وشغف أثرياء الرومان بأكله فى أفخر الولائم ، وراق كذلك كبار القوم فى

---

(١) بوزيرس : إحدى المدن التى ألقيت فيها أشلاء أوزيريس .

(٢) نوكراتس · مدينة فى شمالى الدلتا أقامت فيها جالية كبيرة من الإغريق

فارس : فقد ورد فى كتيب باللغة البهلوب (١١٠) يرجع تاريخه إلى القرن السادس أو السابع أن كسرى عند امتحانه أحد أولاد الأشراف ، وكان بلغه ما اتسم به هذا الشاب من رفعة الذوق وسعة المعرفة - سأله عن أفضل المأكولات ، فأجاب : إن ألذ هلام (بالوظة) هو الهلام المجعول من لحم حمار مبتل ومنقوع فى لبن حامض قبل إدماجه فى الهلام .

ومال إليه الإفرنج فى القرون الوسطى : ومما روى عن الملك داجوبير الثانى فى القرن السابع الميلادى أنه اعتذر يوماً عن عدم أكل جحش مشوى محشو بالعصافير وسمك الثعبان ، لأنه كان يعد نفسه فى اليوم نفسه لتخليص بعض المحكوم عليهم لعجزهم عن سداد ديونهم معتبراً أن هذا الطعام المترف لايتفق مع التقوى المناسبة لهذا الواجب الإنسانى ! (١١١)

وورد فى(قاموس لاروس فى حسن الأكل) (١١٢) ، وهو دستور هواة الطعام الفاخر والطهو المترهف أن الفرنسيين - وحسن تذوقهم معروف - كانوا يربون الحمير ويسمنونها لموائدهم ، وأن سكان جزيرة مالطا عندما حاصرهم الأسطول الإنجليزى اغتذوا مجبورين بالكلاب والقطط والفئران والحمير وغيرها من الحيوانات ، ثم إنهم نتيجة لهذا أحبوا لحم الحمير وفضلوه على لحم الأبقار والعجول ، ثم يضيف هذا القاموس أن ولهلم ملك ألمانيا قدم لنابليون الثالث ليلة انتصاره عليه فى سيدان مخ حمار مطهوًّا على طريقة سماها « الطريقة الدبلوماسية » ! والنكتة فى هذه الرواية هى أن اجتماع العاهلين كان اجتماعاً دبلوماسياً أملى ولهلم فى خلاله شروط الصلح لنابليون المهزوم . وتنتهى مناقشة لحم الحمير فى هذا المصنف الحجة إلى أن لحم الحمير التى لم يتعد سنها سنتين غاية فى الرقة ، وأنها تضاهى لذتها لذة لحم العجول !

ومن المعروف أن النكهة الخاصة التى تحبب السجق الإيطالى والهنغارى للهواة

إنما تأتيه من لحم الحمير والبغال الذى يضاف إليه .
أما الآن فإن حكم لحم الحمير هو تحريمه عند أكثر أهل العلم ، والرخصة فيه إنما رويت عن ابن عباس رواها عنه أبو داود فى سننه (الدميرى -جزءا - ص٣٥٨) . وهناك حديث متفق عليه « أن النبى ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل » . وقد ورد حديث رواه غالب بن أيجر قال : « أصابتنا سنة فشكونا ذلك لرسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله لم يكن عندى ما أطعم أهلى إلا سمان حمر ، وإنك حرمت لحوم الحمر الأهلية » فقال : أطعم أهلك من سمين حمرك فإنما حرمتها من أجل جوال القرية » . فلو صح حديث غالب لحمل على الأكل منها حال الاضطرار وهى فى رأى الدميرى قضية عين لاعموم لها ولا حجة فيها (الدميرى : ١ : ٣٥٨) .
أما الحمار الوحشى وكان يسمى الفراء فإن أكل لحمه يحل بالإجماع (الدميرى : ١ : ٣٦١ صحيح البخارى ٧ : ٩٦ و ٥ : ١٦٧ و ١٧٣) وكان العرب مولعين بصيده .
وحكم البغال يختلف على حسب مولدها : فإن المتولد منها بين الحمار الأهلى والفرس يحرم أكله ، لأنه متولد بين مايحل وما يحرم ، فيغلب جانب التحريم ، فإن تولد بين حمار وحشى وفرس حل ، وأما الحديث الذى روى بإسناد صحيح عن أبى واقد « أن قوماً مات لهم بغل ولم يكن لهم شىء غيره فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فرخص لهم فيه » ، فهذا محمول على أنهم كانوا مضطرين يحل لهم أكل الميتة (الدميرى : ١ : ٢٠٣) .

القطط :

تنفر جل الشعوب من أكل لحم هذا الحيوان الأليف الذى يميل إليه

الكبار والصغار على السواء ، وقيل الفلاسفة والأدباء ، وقل أكله إلا أن يغش به لحم الأرانب ، الأمر الذى جعل البعض يمقت الأرانب لشبهها بالقطط .

وكان المصريون يقدسون القطط ، ويحفظونها بعد الموت ، ويصنعون لها التماثيل ، وقد عثر على قبورها بسقارة وبنى حسن ، ونالت أكثر ما نالته من الحظوة فى أيام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوبسطة » عاصمة لملكهم ، ثم خلط الناس بين القطط ونظائرها ، فعدوا الهرة (بسطت) الصورة الضاحكة للبؤة الفتاكة (سخمت) ، كما تخيلوا (رع) فى هيئة قط يصرع الحية (أبو فيس) وجعلوا للأرواح التى تقيهم شر الحيات فى العالم الآخر رءوس قطط . وقد روى ديودور الصقلى أن عقاب من قتل قطاً كان الإعدام .

وقد حرِّم أكل الهر وإن كان حيواناً طاهراً : فقد ورد فى الحديث الشريف « أن النبى ﷺ دعى إلى دار قوم فأجاب ، وإلى دار آخرين فلم يجب ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إن فى دار فلان كلباً ، فقيل له : وإن فى دار فلان هرة ، فقال ﷺ : الهرة ليست بنجسة وإنما هى من الطوافين عليكم والطوافات » والطوافون الخدم والطوافات الخادمات ، فجعل القطط بمنزلة المماليك وكأنها من أهل البيت (الدميرى : ٢ : ٤٠٠ ، ٤٠١) .

الكلاب :

إنه من المسلم به أن الكلب كان أول حيوان دجنه الإنسان وإن كان القول بأنه إنما دجن ليؤكل [١١٣] قولاً يحتمل الشك . ويبدو أن (العهد) الذى وقع بين الإنسان وهذا الحيوان الأليف تم باتفاق متبادل بين الطرفين ! ورد البعض هذا التآلف إلى أن أرهاط الكلاب المتوحشة اعتادت تتبع القناصين متوقعة غذاء وافراً من الأحشاء والبقايا ، ثم سبقتهم لاستشعار الفرائس بفضل حدة شمها والإرشاد

إليها وإتمام الحصار حولها ، وقوّت هذه الرابطة قدرة الكلاب على معرفة أمزجة أصحابها وتفهم بعض الألفاظ والاستجابة إليها .

ولكن هذه العلاقة ظلت مزدوجة ومتناقضة طوال التاريخ :

فقد آله قدماء المصريين ثلاثة كلاب :

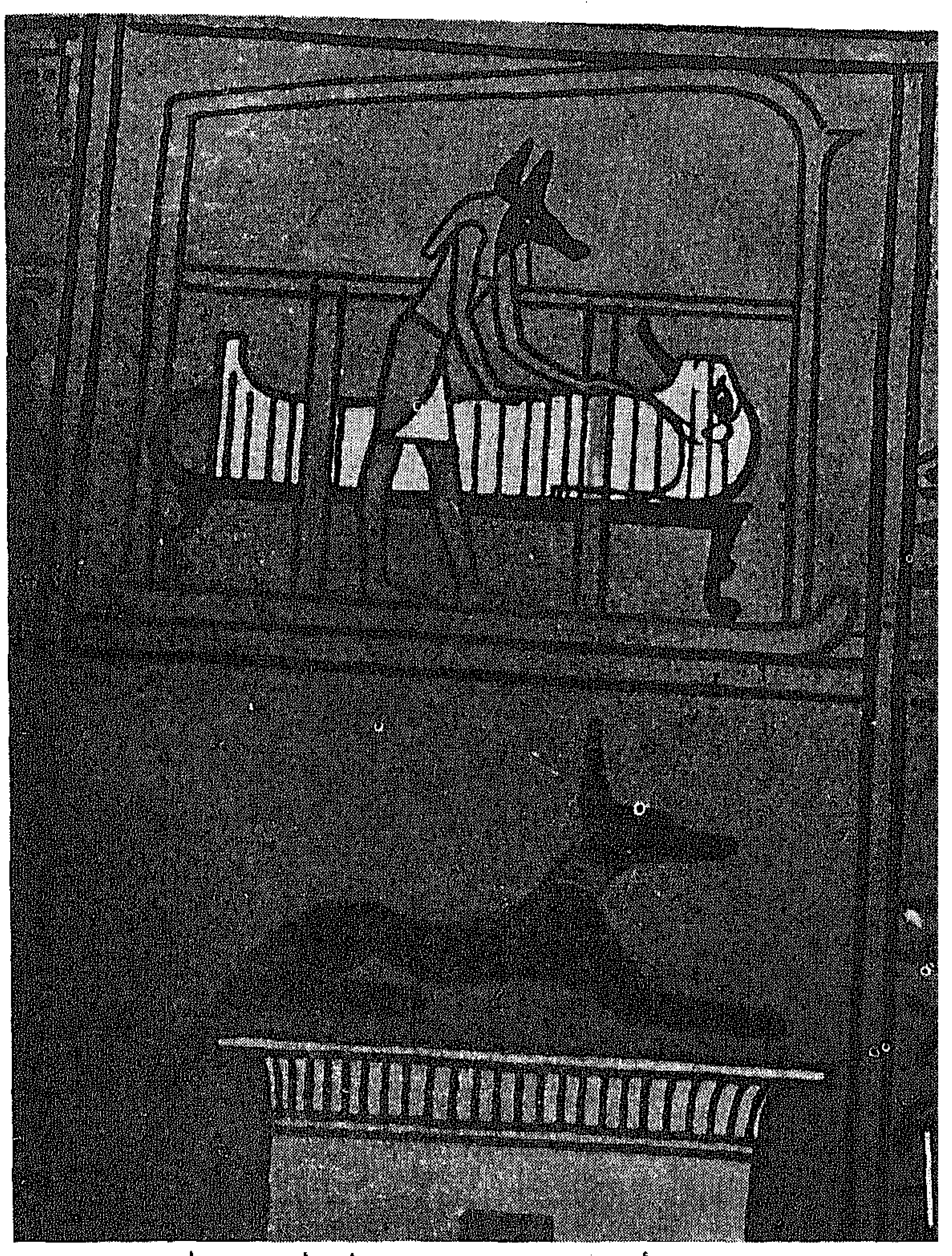
أولها : (وب - وأوت) ومعنى اسمه فاتح الطريق ، وكان يعبد فى أسيوط ، وكانت شاراته تتقدم مواكب الملوك والزوارق المقدسة

ثانيها : (خنتى - أمنتو) : أى الأول فى الغرب : أى الأول فى عالم الموتى ، وكان إله أبيدوس (العرابة المدفونة) حيث دفن ملوك الأسرة الأولى .

ثالثها وأشهرها : أنوبس ، وزعم أنه ابن أوزيريس وإيزيس ، وفى رواية أخرى ابن أوزيريس ونفتيس عندما ظنها إيزيس . وحظى هذا الإله بألالقاب عدة منها سيد البقر الحلوب ، وإله المحنطين ، وقاضى الآخرة ! وقد صور فى شكل ابن آوى أو إنسان ذى رأس ابن آوى . وكان الكهنة المحنطون يرتدون قناعاً فى شكل رأس هذا الحيوان فى خلال عمليات التحنيط (شكل ١٣) . وراجت عبادته فى العالم القديم عندما انتشرت الديانة الأوزيرية وما صاحبها من العقائد الخاصة بالبعث وبالآخرة فى العالم الرومانى والهيلينى المتشبع بالحضارة اليونانية .

وفى روما روى بلينيوس[١١٤] أن الكلاب كانت تصلب على حين كانت الكلاب الرضيعة تعد طاهرة وجديرة بتقديمها قرابين للآلهة وتؤكل تمجيداً لإلهة من إلهات الولادة اسمها (جفيتا منا) . غير أنه أضاف فى مواضع أخرى (٦ : ٣٢) أنه حرم دخولها جزيرة سيجاروس وأن إقليماً من أقاليم السودان كان يحكمه كلب يصدر أوامره بالإشارة ! (٦ : ٣٥) .

وفى الشرق الأوسط - على حسب قول سيمونز[١١٥] - عدّ الزرادشتيون الكلب أقدس الحيوانات ، ونهوا عن قتله أو سوء معاملته .



(شكل ١٣) أعلى الصورة : كاهن يرتدى رأس أنوبيس فى أثناء
التحنيط أسفل الصورة : الإله أنوبيس

وزعمت شعوب من أفريقيا ومدغشقر وجنوب شرقى آسيا أنهم اكتسبوا الحضارة من الكلاب وأنهم من سلالة كلاب جعلوها حيواناتهم الطوطمية.

ولذا فإن النفور من أكل الكلاب بعيد كل البعد عن العموم وإن كان آخذاً فى الانتشار بفضل ضغط الحضارات التى تنهى عنه : إما حبًّا لهذا الحيوان الأليف، وإما تنجيساً له ، وإما تأليهاً له. وقد تكون نشأة هذه المواقف المختلفة تفاعلات متباينة لاعتبار واحد.

ينتشر أكل الكلاب الآن فى شرقى آسيا من سيبريا شمالاً إلى أسام جنوباً وجزر هاواى شرقاً. واستولد الصينيون نوعاً منها ، وخصصوه للمائدة ، وبلغ ميلهم إليه مبلغ تسميتهم إياه فى فورموزا (اللحم العطر !) وينتشر أيضاً فى غربى أفريقيا وفى حوض الكونجو حيث كانت الكلاب تستبدل بالعبيد إلى عهد قريب. وكذلك فى المكسيك حيث انحصرت هذه العادة بعد أن كانت تعم القارة الأمريكية قبل الفتح الإسبانى.

أما فى مصر القديمة فإننا لا نجد ذكراً لأكل الكلاب إلا فى واقعة واحدة رواها بلوتارخ ، مفادها أن أهل مدينة أكسيرنخس الذين ألهوا سمكة (أبو بوير) ذبحوا كلباً وأكلوه انتقاماً من أهل مدينة كينوبولس عباد الكلب الذين كانوا يأكلون هذا النوع من السمك ، وأن هذه الواقعة أدت إلى الحرب بين المدينتين.

هذا ، وإن كان حافز أكل الكلاب فى هذه الرواية الانتقام فإنما يدل على عدم تحريم أكل الكلاب فى أكسيرنخس (١١٦).

الثعابين :

تأكل شعوب عدة الثعابين ، رواه الرحالة العرب أمثال الإدريسى والعمرى (١١٧).

يشير الدميرى (١ :٤٠١) إلى عداوة الحية للإنسان منذ آدم وحواء والحية وإبليس ، وإلى أن قتل الحيات واجب .

وقد حرم أكل الثعابين لضررها ، وحرم أيضاً الترياق المعمول من لحومها إلا اضطراراً بحيث يجوز أكل الميتة . أما السمك المكون فى شكلها فحلال .

الحشرات :

إنى أدرك تمام الإدراك عنف المشاعر التى ستثيرها مجرد فكرة أكل الحشرات ، وصعوبة مقاومة الآراء المستحكمة فى أعماق أذهاننا ، وإنى أعترف بأنى – بحكم نشأتى – أشارك القراء فى نفورهم عن هذا اللون من الطعام ، وأقر بأنى إذ أدافع عن رأى مخالف لميولى الشخصية إنما أدافع عنه بواعز من المنطق لا بدافع الميل .

لقد استساغت شعوب كثيرة أكل الشراعم والحشرات : كان أثرياء الرومان يسمنون الدود فى مزيج من دقيق الحنطة والنبيذ ، ثم يأكلونه مشوياً ، وكان الإغريق يقدمونه لضيوفهم المكرمين ، وروى آيليان أن ملكاً من ملوك الهند اعتاد تقديم شرانق مشوية للحفاوة بضيوفه ، ومن المعروف أن الجاويين مشغوفون بنوع من الخنافس[1] وأن الصينيين ولعون بأكل براعيم دودة القز ، وأن أهل أواسط أفريقيا يطهون أطعمتهم بزيت النمل ، ولا عجب فما العسل إلا لعاب النحل .

ولا ينفر أناس من أكل دود الجبن زاعمين أنه من جوهره .

وقد جمع بودنهايمر[١١٨] معلومات مفيدة عن أكلة الحشرات وأفادت مثل هذه الدراسات فى تدريب جنود (الكوماندو) على أكل مايتسنى لهم من الطعام فى الأدغال ، ومنه الثعابين والديدان .

وزعم هايز[١١٩] – قياساً بالشعوب القديمة – أن قدماء المصريين تغذوا

---

(١) Holt 118 -Melolontha hypoleuca. Cockcgafer.

بالشرانق والديدان ، ولكنه لم يستند إلى أى دليل من الواقع .

ولذا يتحتم التفرقة بين الحشرات النقية والحشرات القذرة لأن تركيب أبدان الحشرات قاطبة لايخالف تركيب أبداننا .

ويتساءل هولت [١٢٠] : إذا كان الفيصل بين مايؤكل وما لايؤكل هو نقاوة الطعام وعدم أكل الميتة والقاذورات – فإن بعض الشرانق والحشرات نباتية تماماً ، فمن أين تأتى قذارة دود الجبن وهو منذ لحظة الفقس يتغذى بالجبن حتى أصبح جزءاً منه ؟ ومن أين قذارة دود القز وهو لا يقرض سوى ورق التوت النضر؟ وأين قذارة براعم القطن والكرنب وكل أنواع الدود التى تعتمد على النبات فى غذائها ؟ هل تقارن هذه الدبيبات بالدجاج الذى يبحث عن طعامه فى القاذورات حتى فى الروث ، أو بالسمك الثعبان والسرطان (أبو جلمبو) و (الأستاكوزا) التى تكسح قمامة البحار ؟

أما إذا كان الفيصل هو الشكل فكيف نستقبحها على حين نتلهف على المحار والكرشة على بشاعة شكلها ؟ .

ولا شك فى أن أكثر الحشرات رواجاً بين القدامى كان الجراد ، فقد روى سترابو [١٢١] أن بعض الآسيويين كان يقذف بالأخشاب المحترقة فى الحفر التى يلجأ إليها الجراد ويصطاده عندما يطير وقد أفقده الدخان البصر .

وذكر بلينيوس شعوباً كثيرة استساغته ، وأباحت التوراة (اللاوين ١١ : ٢٢) أنواعاً منه وحرمت أنواعاً أخرى ، فدفعت صعوبة التمييز بينهما علماء اليهود إلى تحريم أكلها خوفاً من الخطأ [١٢٢] .

واشتهر العرب إلى اليوم بميلهم إليه ، وورد فى إنجيل متى أن سيدنا إدريس عليه السلام (القديس يوحنا المعمدان) أمضى أربعين يوماً فى الصحراء لا يأكل إلا الجراد والعسل . وفى سنة الرسول ﷺ ، قال عبد الله بن أبى أوفى ، غزونا مع

رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد » رواه أبو داود والبخارى والحافظ أبو نعيم وفيه : ويأكله رسول الله ﷺ معنا » وروى ابن ماجه عن أنس قال : « كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد فى الأطباق » ومن الروايات الأخرى أن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد ، والدليل على عموم حله قوله ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الكبد والطحال والسمك والجراد » .

أما الحشرات الأخرى فقد حرم أكلها أغلب العلماء ، غير أن مالكاً قال : إنها حلال لقوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) [1] (الآية) ، واحتج الشافعى والأصحاب بقوله تعالى (ويحرم عليهم الخبائث) [2] وهو ماتستخبثه العرب ، وقالوا معنى الآية : قل لا أجد - (الآية) هو : مما كنتم تأكلونه وتستطيعونه . وقال الغزالى فى الوسيط : لا يؤكل من الحشرات إلا الضب (الدميرى : ١ : ٣٣٣ و ٣٣٤) .

أما الدود فيحرم أكله بجميع أنواعه ، لأنه مستخبث إلا ماتولد من مأكول ، وفيه ثلاثة أوجه : أصحها أكله معه لا منفرداً ، والثانى أنه يجب تمييزه ولا يؤكل أصلاً ، والثالث أنه يؤكل معه ومنفرداً (الدميرى : ١ : ٤٨٨) .

وإلى هذا فقد استخدم الطب أنواعاً من الديدان للعلاج : نرى قدماء المصريين يصفون أحشاء حشرات مختلفة لتقوية البصر (إبرز : ٣٣٩ و ٣٤٢ و ٣٤٣) ، والخنافس بعد نزع رءوسها وأجنحتها لمقاومة السحر (إبرز : ٧٣٣) ودودة سميت (أنارت) لإسقاط الشعر (إبرز : ٤٧٤) وذنب العقرب لعلاج أمراض الأذن (بردية برلين : ٧١) ، ولا شك فى أن أغلب هذه الوصفات مبنية على اعتبارات سحرية وليست طبية .

---

(١) الأنعام / ١٤٥ .　　(٢) الأعراف / ١٥٧ .

لم يختلف الإغريق أو العرب فى استخدامهم أجزاء الحشرات . ولنذكر بعض أمثلة مستخرجة من كتاب الحيوان الكبير للدميرى :

« إذا أخذ دود القز وخلط بالزيت ولطخ به بدن إنسان نفع من نهش الهوام وذوات السموم .

ودودة القز إذا أخرجت منه وأكلها الدجاج حصل له سمن كثير .

ودود الزبل الأصفر الذى يخلق منه إذا طبخ فى زيت عتيق حتّى ينصج ، ويدهن بذلك الزيت داء الثعلب فإنه يبرئه » (الجزء الأول : ٤٨٨) .

« إذا وضعت العقرب فى إناء فخار وسد رأسه ثم وضع فى تنور إلى أن تصير رماداً وسقى من ذلك من به الحصى نفعه وفتّها (الجزء الثانى : ٦٤) .

إذا يبس العلق فى الظل وسحق مع نشادر وطلى به موضع داء الثعلب نبت الشعر عليه (الجزء الثانى : ٧٤) .

« الدراريج تخلط فى الأدوية الموافقة للأورام كالسرطان والقوابى الرديئة قال الرازى : الاكتحال منها ينفع الطرفة فى العين ، وإذا طلى بها مسحوقه قتلت القمل ، وإذا طبخت فى زيت أبرأ ذلك الزيت داء الثعلب (الجزء الأول : ٥١١) .

« قال ابن سينا : إذا أخذ منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها وجعل منها قليل من الآس اليابس وشربه صاحب الاستسقاء نفعه » (الجزء الأول : ٢٧٠) .

« الخنفساء : الاكتحال بما فيها من الرطوبة يحد البصر ويزيل البياض ، وإن أخذت خنفساء وطبخت بعصير السمسم وقطر فى الأذن منه فإنه نافع من جميع أوجاع الأذن (الجزء الأول : ٤٧٧) [١٢٣] .

البيض .

البيض من الأطعمة التى نستغرب تحريمها ، ولكن هذا الطعام المحبوب أملى اعتقادات ومخاوف لاتزال تلون عادات شعوب كثيرة لاحتوائه عنصراً حياً كامناً .

وقد ورد نص يؤكد تحريم البيض فى أثناء مآدب العرس فى مدينة نوكراتس المخصصة لإقامة الإغريق فى مصر القديمة دون تحديد منبع هذا التحريم ، أكان إغريقياً أصلاً أم كان مصرياً وانتقل إلى الإغريق ؟

وفى جنوبى السودان يجتنب ذكور (النوير) اليوم البيض لاعتقادهم أنه طعام لايناسب سوى النساء والأطفال ! ولايزال مثل هذا التحريم قائماً فى بعض قرى اليونان النائية ويعتقد سيمونز أنه من رواسب أسرار الديانة الإلوزية .

وعلى العموم يمكن تقسيم أنماط اجتناب البيض على الوجه الآتى :

١ - التحريم تحريماً باتاً على الجنسين .

٢ - السماح بالبيض ومنع الدجاج .

٣ - تحريم البيض الملقح .

٤ - تحريم البيض غير الملقح .

٥ - السماح به للنساء والشيوخ فقط .

٦ - التحريم على النساء فى سنى الإنجاب خوفاً من العقم .

٧ - التحريم على الصبيات قبل إنهائهن طقوس البلوغ .

٨ - التحريم على الصبيان خوفاً من رسوبهم فى امتحانات البلوغ .

٩ - اجتناب الرجال للبيض خوفاً من التخنث .

١٠ - منع الحوامل والمراضع من أكله .

ويلاحظ فى كل هذه التقاليد المختلفة وجود خيط واحد موصل بينها هو فرض

صلة بين البيض والقوى المولدة .

أما فى مصر فإنه يسود الاعتقاد بعدم ملاءمة البيض للأمراض المنسوبة إلى « برد » . والبرد عند العوام يشمل الزكام والإنفلونزا ، كما يشمل الاضطرابات المعوية والآلام الروماتزمية وجمهرة من العلل غير محددة .

ويعلق الأقباط وسط الكنائس بيضة نعام ، ولا ندرى معنى هذا التقليد على التحقيق ! وإن كنا سمعنا له تفسيرين قوامهما أن النعام لاينثنى نظره عن بيضه طوال مدة الحضانة ، فالمسيح يرعى كنيسته بالعناية نفسها ، والمؤمن لاينثنى انتباهه عن العبادة لحظة واحدة .

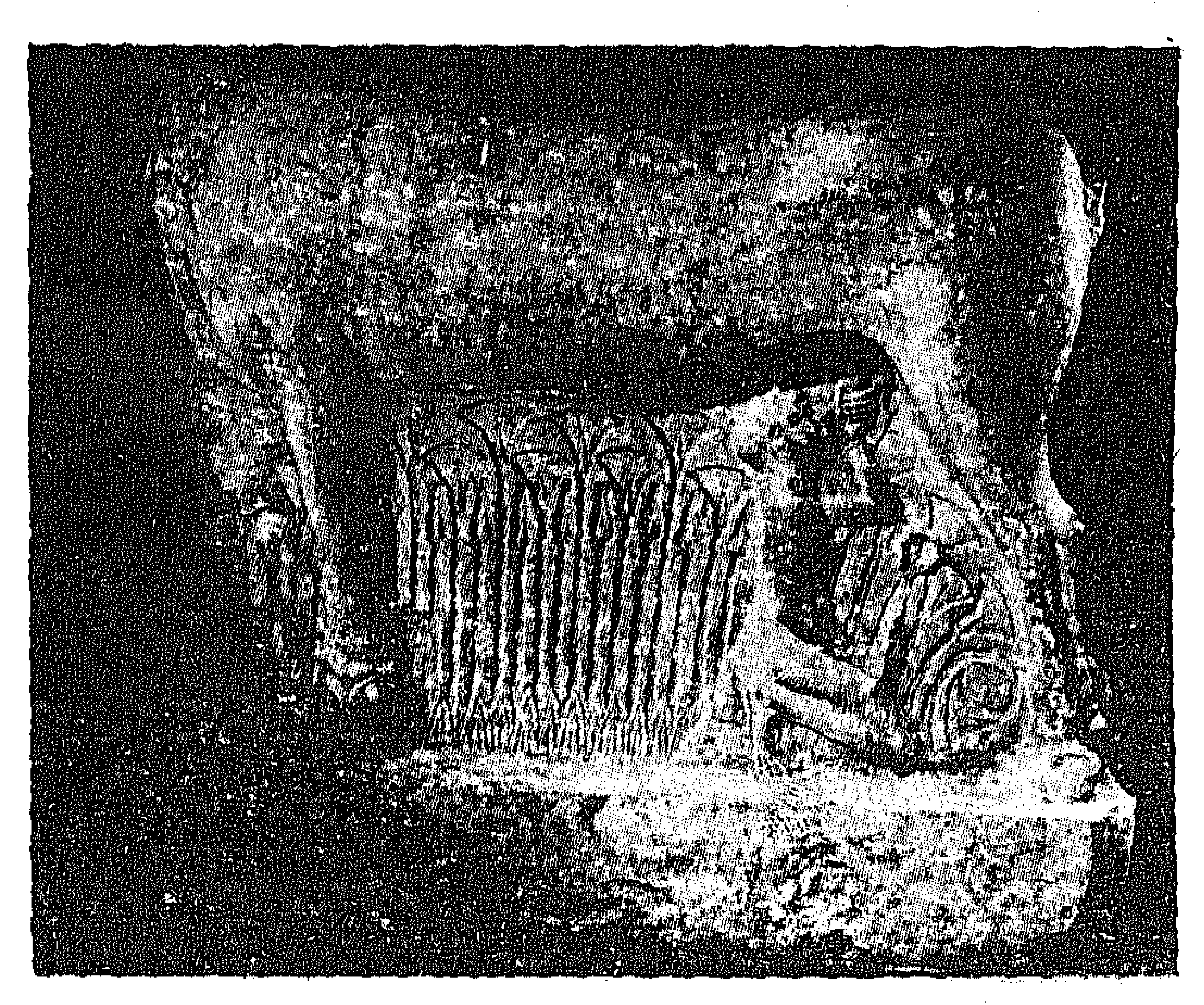
اللبن :

اللبن فى مصر القديمة :

كان الأطفال فى مصر القديمة يرضعون لثلاث سنوات ، وكان يلجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن - على الأقل فى عصر البطالمة - خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز طريقة التمييز بين اللبن الصالح وغيره .

لم يرد أى نص يشير إلى استخدام الحيوانات للرضاعة مباشرة ، وإن كانت الأدلة توحى بهذا : فقد ورد بين نصوص الأهرام على لسان إلهة من إناث الرخم الحديث التالى الموجه إلى الملك المتوفى : « يابنى أيها الملك ، أمسك بثديى واحتلبه . لِمَ تنقطع عن الحضور إلىّ فى كل يوم من أيامنا هذه ؟ ويضيف النص : « لقد حضر إلى أميه الرخمين الأنثيين ، ذاتى الشعر المسدول والأثداء المتدلية . . فجذبتا أثداءهما نحوه ولن يفطماه أبداً [١٢٦] .

ومما يدعو إلى التعجب أن فرويد [١٢٧] وصف أيضاً الرخم بأنه من رموز



(شكل ١٤) طفل يرضع من ثدى بقرة

الأمومة وهذا بعد تدوين ذلك النص بأربعين قرناً أو يزيد .

ومن البديهى أن الرخم ليس من الثدييات ، وأن الغرض من هذا النص الذى ربما كان مصحوباً بحركات سحرية كان تأكيد انحدار فرعون من سلالة إلهية وإعادة الحياة إليه بغذاء إلهى .

وهذا القصد واضح أيضاً فى نصوص دينية أخرى ، منها : باب من (كتاب الموتى) نُقشت له نحوت وتماثيل جميلة تمثل الملك المتوفى – ولونه أسود لون الموت – متجهاً غرباً : أى نحو مغرب الشمس وبلاد الأموات ، حيث تقابله الإلهة (حات – حور) ، إلهة المستنقعات الغربية ، وتعرض عليه حليبها ، فيقبله ، وما إن يشربه حتّى يستحيل لونه إلى أحمر : أى لون الحياة ، الأمر الذى يرمز إلى دخوله الحياة الأبدية .

ومع ذلك فإن بعض التماثيل تمثل أفراداً لا ينتمون إلى الأسر الملكية وهم يرضعون بصحبة العجل الأمر الذى قد يرجح أن الحيوانات كانت تستخدم كالمراضع (شكل ١٤) .

وفى غير هذه الحالات كان الحليب يقدم للأطفال بملاعق : أو أوان خاصة نذكر منها ثلاثة أنواع :

الأول : أوعية على شكل سيدة على حجرها طفل هزيل ، قيل : إنهما يمثلان الإلهة إيزيس والطفل الذى أنجبته من زوجها أوزيريس بعد وفاته على حسب رواية كانت تمثل على جدران الغرف السرية الخاصة بالطقوس الأوزيرية بالمعابد . حيث نرى الإلهة على شكل طائر يرفرف فوق عضو أوزيريس وهو ملقّى على ظهره ، ويعتقد أن هذه الأوعية كانت تستخدم لحفظ لبن الأمهات اللائى ينجبن أطفالاً ذكوراً ، وهو كان يعد دواءً ممتازاً .

والنوع الثانى عبارة عن تماثيل صغيرة بجوفة تمثل أنثى فرس البحر ، الإلهة

(تاورت) إلهة الولادة والطفولة . والثديان المنقوشان على كل منهما مثقوبان بحيث يسمحان بامتصاص اللبن الذى بداخله ، وكأنهما ثديان حقيقيان لأم ترضع وليدها . (شكل ١٥) .

أما النوع الثالث من الأوعية فيمثل قروناً مجوفة قيل : إنها استعملت للحقن الشرجية ، وإن كان هذا الزعم يدعو إلى الشك ، إذ إن ضعف اندفاع السائل منها يجعل تصور انتقاله إلى الأمعاء مستحيلاً . ونحن نرجح أنها كانت تستخدم فى التغذية ، ونستند فى ذلك إلى استعمال القرون لتغذية صغار الحيوانات والرضع طوال العصور الوسطى بأوربا .

ولعل القارئ أدرك مما سبق معنى شرب اللبن الرمزى وهو تأكيد التسلسل من الأم واكتساب شخصيتها والدافع إليه وهو وضع الملوك بين الآلهة لاحتسائهم لبن الإلهات ، وهو معنى تلك الرسوم والنحوت التى تعج بها المعابد المصرية والتى تمثل الإلهات وهن يرضعن الأمراء وورثاء العرش .

وكان الحاجز بين الإنسان والحيوان غير محدد فى الخيال البدائى : روت أساطير الإغريق أن زوس كبير الآلهة كان يتحول بسهولة فائقة تارة إلى ثور وطوراً إلى بجعة أو إلى حيوان ثالث ليقترب من النساء اللائى كان يرغبهن ، وأن ديونيسوس تحول إلى سبع ، وأن بحارته تحولوا إلى درافيل وأن الإله أبولو حول أذنى ملك إلى أذنى حمار ! وهذه الروايات وغيرها سجلها أوفيد فى الأجزاء الخمسة عشر من مؤلفه المشهور « التحولات » .

وتحدثنا روايات أخرى عن حيوانات أرضعت أمراء وملوك : كالفرس التى غذت بيلياس ، والنعجة التى غذت أسقلابيوس إله الطب ، والدبة التى غذت أطلانطا ، والكلبة التى غذت قيروش ، ولعل أشهر هذه الروايات رواية الذئبة التى



(شكل ١٥) وعاء من الخزف فى شكل فرس البحر (الإلهة تاورت راعية الولادة والطفولة) كان يملأ بالحليب ويمتص اللبن من الحلمتين المفتوحتين

أرضعت رومس وروملوس مؤسسى روما ، ولا تزال صورة الذئبة ورضيعيها رمزاً ورنكا لهذه العاصمة .

لبن الأم :

تقول أمثالنا الشعبية « أحلّ من لبن الأم » وعن الرجل الشهم الشريف الأصيل إنه « شارب من لبن أمه » .

وأفضل لبن عند قدامى المصريين كان لبن الأمهات اللائى أنجبن وليداً ذكراً ، وكانت تنسب له صفات علاجية ممتازة ، وقد اعتاد أبقراط وديوسقوريد وأطباء الأقباط وصفه ، وفسّر أرسطو تفضيله فقال : إن السيدات الحاملات لأجنة من الذكور يتمتعن بقوى تفوق اللائى يحملن إناثاً ، ولذا فإنه من الطبيعى أن يكون لبنهن أفضل (١٢٨) .

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر فى طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون أن تكون الأم مرضعة الولد ، إلا إذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود أو من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن يؤثر فى شاربه .

واهتم العرب باختيار المرضعات ، لما يكون للبان الرضاع من أثر فى الرضيع ، ولما يكون للمرضعة ولبيئتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر فى تربيته وخلقه . وفى حديث عمرو بن العاص : ماتأبطتنى الإماء ولا حملتنى البغايا فى غبرات المآلى : أراد أنه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلى : بقايا خرق الحيض .

وإذا أرادوا مدح إنسان والثناء عليه ذكروا مرضعته وصفاء لبنها الذى رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . وإذا أرادوا

ذم إنسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » كناية عن أنها هى التى أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفى الحديث حين ذكر الإمارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » : ضرب المرضعة مثلاً للإمارة وما يوصله إلى صاحبها من الأحلاب ، يعنى المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذى يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها .

وتعد الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر وخاصة إذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك ، أى أخوك فى الرضاعة ، وتقول : « استرضع فى بنى فلان » ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع ، حتى إنه حرم زواج الإخوة من الرضعة :

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) (النساء ٢٣) .

اجتناب اللبن :

ومع مظاهر التقدير للبن التى أدت إلى ابتكار بعض العبارات مثل « عسل على لبن » – أن البعض يتجنبه أو يعد شربه معيباً . ومن هؤلاء بعض الهنود المسلمين[١٢٩] الذين اصطبغوا بطبائع البرهميين الذين يحيطون بهم ، وبعض قبائل آسيا وأفريقيا . وقد تكون العلة فى هذا النفور نقصاً خلقياً فى خميرة (لكتاز) المعوية ، وخاصتها هضم سكر اللبن (لكتوز) وتحويله إلى سكريات قابلة للامتصاص ، حيث إن هذا النقص منتشر فى الشرق وفى أفريقيا ويندر فى الغرب .

وفى غانا تجتنب المرضعات الأطعمة المحرمة على الرجال خوفاً من تحولها إلى

ألبانهن ، ومن ثم إرضاع أطفالهن الذكور هذه المحرمات ، ولربما نشأت هذه العقيدة عن ملاحظة تأثر اللبن ببعض الأطعمة كالثوم والبصل وبعض العقاقير كالملينات .

أما فى الشرق الأوسط فلا يلاحظ شىء من هذا ، اللهم إلا فى ثلاثة ظروف محدودة :

١ – عدم خلط اللبن بالسمك ، وقد سبق ذكره .

٢ – اجتناب الأقباط كل المواد الحيوانية فى خلال أيام صيامهم العديدة .

٣ – عدم أكل اليهود اللحم واللبن فى أكلةٍ واحدة . ووصل التزمت عند بعض اليهود إلى عدم تناول أية كمية من اللبن قبل مضى ساعتين من تناول اللحم .

ومن الغريب أن نجد مثل هذه العادة بين (المازاى) القاطنين أعالى النيل الذين يتغذون بلبن ودم أبقارهم ، ولا يتناولون شيئاً من اللحم إلا استعداداً للقتال ! وهم فى هذه الحال يلجئون إلى أعنف المسهلات للتخلص من أدنى بقايا اللبن فى أمعائهم قبل تناول اللحم .

وليس ثمة من شك فى أن هذه التحريمات لا تمت إلى أى اعتبارات صحية بصلة .

المحرمات غير الحيوانية :

ومما يدعو إلى التأمل أن الحظر الدينى لم يتناول فى شتى الأديان سوى المواد الحيوانية وهى التى فى عرف القدامى كانت حاملة لأرواح : كالبيض والحليب ولحوم بعض الحيوانات ، باستثناء الديانة المصرية التى حرمت على الكهنة البصل والفول والملح :

يروى مؤرخو الإغريق ورحالتهم [١٣٠] أن البصل حرم : لأن الروائح المتصاعدة ممن

يأكلونه تنجس المعابد ، وأن الفول – وقد حظره الفيثاغوريون – يحدث عفونة تماثل عفونة الموتى ، الأمر الذى حدا بهم إلى الزعم بأنه يحوى أرواح الموتى !

والنباتان اللذان قيل عنهما : إنهما حرما على قدماء المصريين – هما الفول والبصل :

أما عن الفول فقد حرم (فيثاغورس) أكله على أتباعه ، وهذا لإيمانه بأن الفول إنما ينتج عن المواد المتعفنة التى يخلق منها الإنسان ، وقد قال بعض الرواة : إنه استمد هذه العقيدة من الكهنة المصريين فى خلال تتلمذه عليهم فى مصر ، والأرجح أنه استنبطها من إيمانه فى تقمص الأرواح ، أما بلينى [١٣١] فإنه رد هذا التحريم إلى سببين وهذا فى نص واحد ، إذ قال : إن الفول يورث الأرق ثم قال : إن أرواح الأموات فى الفول ، وهو قول أخذه – على الأغلب – عن فيثاغورس . أما ديودور الصقلى فقد ذهب إلى أن السبب هو وجوب تدريب الإنسان على إنكار الذات حتى مما كان مفيداً . [١٣٢] .

وقد كرر هيرودوت ذكر كره الكهنة للفول ، قال : ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم مطلقاً ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجًّا أو مطبوخاً ، أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل « نجس » : (٢ : ٣٧) ولا يفوتنا ما فى هذا القول من المبالغة .

ويرى الدكتور بدوى أن التحريم يكون قد اقتصر على الكهنة لإثارته بعض المظاهر الكريهة فى أثناء العبادة . أما العالم الفرنسى لورى [١٣٣] فإنه ذهب إلى أن اللفظة التى ترجمها الإغريق (فول) كانت – فى الحقيقة – تدل على ثمار السوسن الوردى الذى قدسه المصريون .

ويقوِّى شكّنا فى صحة تعليل التحريم بدوافع صحية أن نصًّا واحداً من النصوص الخاصة بالفول لم يعرض للأنيميا القتالة التى تصيب بعض الأطفال

عقب تناول الفول مباشرة ، وفى صورة تجعل العلاقة بين السبب والمسبب أقرب للعين وأوضح للملاحظة من علاقة الخنزير بالتريكينا ، ولكن الكتّاب اتجهوا إلى تعليل التحريم بأحد سببين ، هما : إنتاج الروائح الكريهة ، وإيواء أرواح الموتى ! وقد يكون الربط بين نتانة الروائح وتعفن الجثث هو الوصلة بينهما .

ونشاهد فيما قيل عن البصل والثوم الاختلاف الذى واجهناه نفسه فى شأن الفول : فإن النصوص تشير إلى أن البصل كان غذاء مفضلاً ، وسجلت التوراة تحسر اليهود فى سيناء على البصل والكراث الذى كانوا يأكلونه فى مصر (عدد : ٥ : ١١) ، كما عيّر بلينيوس [١٢٨] المصريين اعتيادهم القسم بالثوم والبصل (كما نقسم نحن اليوم بالعيش والملح) ، وروى هيرودوت (٢ : ١٢٥) أن بنائى الهرم كانوا يتناولون منه كميات كبيرة .

وعلى العكس : قال جوفنال [١٣٤] « لايعبد أحد منهم (ديانا) ، ولكنهم لا يضعون فى أفواههم البصل أو الكراث لأن هذا فى نظرهم غير ملائم » .

وجمع بعضهم بين البصل وبين ست على النحو الذى جمعوا عليه بين ست والخنزير : « إن الرواية التى فحواها أن (دكتيس) رضيع إيزيس غرق فى النهر إذ بسط يده للإمساك برزمة من البصل لا تصدق ، ولكن الكهنة يتجنبون البصل لأنه - دون غيره - يزدهر عند أمحاق القمر [١٣٥] [١] .

وقد يكون السبب الحقيقى فى اجتناب الكهنة البصل خشية تصاعد الروائح الكريهة فى المعبد .

الملح :

من المأكولات الأخرى التى نستغرب ضمها إلى قائمة المحظورات . والتى تعزز

(١) انظر الباب الرابع فى الخنزير.

الطابع الدينى للتحريم – من هذه المأكولات الملح الذى يبدو أنه حرم على الكهنة فى مصر وعلى بعض الفئات الدينية فى اليونان .

والملح من المواد التى طالما أوحت بأوهام وتخيلات نسجت حوله :

يرى علماء السلالات أن الإنسان لم يشعر بفائدة الملح إلا عند انتقاله من حياة القنص وأكل اللحوم إلى حياة الزراعة : وذلك لأن البذور تتميز بنقص الصوديوم وكثرة البوتاسيوم ، ويرون أن ضرورة إضافة الملح إلى الخبز هى أصل العبارة الدارجة : « العيش والملح » التى تعبر عن الوفاء والإخلاص ، والتى اتخذت قسماً يحلف به . . ومن هنا اعتبر انسكاب الملح على موائد الطعام فألاً سيئاً ونذيراً بوقوع بغضاء ! .

وقد ورد الملح فى التوراة ضمن القرابين ، واستعمل الملح فى إنجيل متى رمزاً للفضل والجدارة ؛ إذ قال سيدنا عيسى إلى رسله : « إنكم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح فماذا يملح ؟ إنه لايصلح بعد لشىء سوى الطرح والدهس » .

ونظر الرومان إلى الملح على أنه دعامة الحياة المتمدينة ، إلى حد أنهم عبروا عن حدة الذكاء وخفة الروح بكلمة Sales : أى الملح .

ونجد مثل هذا التعبير فى لغتنا إذ نصف المهارة والذكاء بالحذاقة ونقول « ملح الله فيه » : أى بارك الله عيشه و « ملح الشىء » أى بهج منظره فصار مليحاً ونقول حين نتعجب : « ما أملحه » : أى ما أحسنه ! و « مالحه » أى أكل معه ، وتملح « أى تكلف الظرف . . إلخ .

وفضلاً عن ذلك فقد نسب بعض القدامى إلى الملح روحاً حية هى التى تمنع تعفن اللحوم المملحة .

وعن الملح فى مصر ، روى بلوتارخ (١٣٦) أن الكهنة كانوا يتجنبونه ، ظناً منهم أنه من العناصر الموالية للإله (ست) ، وذلك لنشأته من البحر ، والبحر هو

(ست) ، لأنه يلتهم النيل فى آخر مجراه ، والنيل مصدر رخاء مصر ؛ كما شبهوا ثورة البحر وعواصفه بعنف (ست) وهياجه ، ولهذه الأسباب فإن الكهنة – على حد قول بلوتارخ – يبتعدون عن البحر وينبذون الملاحين ، ولا يضعون الملح على الموائد .

ثم جنح بلوتارخ إلى تفسير آخر لتجنب الكهنة الملح : وهو أنه ينبه العطش والشهية فيدفع إلى الشرب وكثرة الأكل ، وهذا غير مرغوب فيه ، وبصفة خاصة فى مواسم الصوم ، كما أنه يثير الرغبة الجنسية .

وهذه الخاصة الأخيرة – أى تنبيه الرغبة الجنسية – إنما هى فى تصوره سبب نعت أية امرأة على جانب من الفتنة والإغراء متجاوبة ، غير متمنعة ، ولا عنيدة – بأنها مالحة أو حذقة ، وكذلك قول الشعراء : إن أفروديت إلهة الحب كانت ابنة البحر المالح !

ومن جانب آخر نرى الملح مستخدماً فى بعض الطقوس الدينية فى مصر القديمة ، وتفيد النصوص أن كهنة آمون كانوا يجتلبونه من سيوة إلى الوادى لإهدائه إلى الحكام ، ويضيف بلينيوس صاحب هذه الرواية أن ملح آمون هذا استخدم دون غيره فى الطقوس الدينية لنقاوته .

ومن هذه التناقضات جميعاً يمكن – مع ذلك استخلاص عدة حقائق ، أبرزها : أن الملح المستخرج من البحر كان نجساً فى نظر الكهنة ومحرماً عليهم ، على حين سمح لهم باستعمال كميات معتدلة من الملح المعدّن . أما الشعب فإنه لم يخضع لهذه البدع .

الباب السادس

الاعتبارات الصحية والغذاء

لقد طالما كان للأطباء ومدعى الطب شأن خطير فى تحديد الغذاء سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الجماعى :

وعلى المستوى الفردى نرى مثلا الأطباء يصطحبون الملوك والأمراء لمراقبة غذائهم وإبداء النصح فيما يؤكل منه وفيما لا يصح أكله ، بل ربما أيضا لتذوق الطعام خوفاً من دس السم فيه ، وبطبيعة الحال كان نصحهم مصطبغاً باتجاهاتهم الطبية .

أما على المستوى الجماعى فما فتئ الدجالون والتجار يبتدعون نظريات وهمية لاستغلال سذاجة القراء وترويج مستحضراتهم !

وقد اهتم بالغذاء أطباء كل العصور وعلماؤها : فقد آمن قدماء المصريين بدور محتويات الأمعاء فى إحداث الأمراض ، وأعاروها رعاية فائقة ، واعتاد كهنتهم

تناول المقيئات والمسهلات بانتظام للاحتفاظ بنقاوتها ، وأبدى أطباؤهم إرشادات حكيمة : كتجنب الجعة الساخنة واللحم العفن والجميز الفج والأكل قبل فراغ المعدة إلخ (بردية إبرز) .

وعندما سادت النظريات الكونية الفكر الطبيّ فى العصر اليونانى تخيل العلماء أن المادة على اختلاف أشكالها – ومن ضمنها البدن والغذاء – مكونة من أربعة عناصر أو أركان هى الأرض والماء والنار والهواء ، وأن نسبها فى أية مادة تكون (مزاجها) ، ثم إن لكل ركن زوجاً من أربع صفات أو كيفيات هى : الرطوبة ونقيضها اليبس ، والحرارة ونقيضها البرودة .

فنسبت للنار الحرارة واليبس ، وللهواء الحرارة والرطوبة ، وللماء البرودة والرطوبة ، وللأرض البرودة واليبس . وسميت نسبة الأركان وما يتبعها من الكيفيات فى كل جسم « مزاجه » .

لم يختلف الغذاء وهذا ، وزُعِم أن أركانه تتحول فى الجسم إلى سوائل هى الأخلاط الأربعة : الدم والبلغم والمِرة الصفراء والمرة السوداء ، وهى التى تنشأ عنها الأعضاء الرئيسة : القلب والدماغ (المخ) والكبد .

ثم زعم الأطباء أن الدم ساخن رطب ، والبلغم بارد رطب ، والمرة الصفراء حارة يابسة ، والمرة السوداء باردة يابسة . ومثلما عرفت المادة بمزاجها فقد عرفت الأعضاء والأبدان بأمزجتها : أى بنسبة الأخلاط الأربعة والكيفيات الأربع فيها .

ولنقتبس نبذة من وصف ابن سينا[١٣٧] للتفاعل بين الغذاء والبدن حيث قال : إن ما يُؤكل أو يُشْرب يفعل فى البدن من وجوه ثلاثة : إما بكيفيته ، وإما بعنصره ، وإما بجملة جوهره :

أما الذى يفعل بكيفيته فإنه يبرد البدن ببرودته ، ويسخنه بسخونته من غير أن يتشبه به .

وأما الذى يفعل بعنصره فإنه يستحيل إلى صورة عضو من أعضاء الجسم أو صورة جزء من عضو إلا أن عنصره مع قبوله الصورة الجديدة يحتفظ بكيفيته ، مثل : الدم المتولد من الخس ، فإنه مصحوب ببرودة تفوق برودة الدم ، والدم المتولد من الثوم بالعكس .

وأما الفاعل بالجوهر فإنه يفعل بالصورة الحاصلة بعد المزاج إذا امتزجت بسائطه وحدث منها شيء قبل كيفيات ليست بالكيفيات الأولى ولا بالمزاج (الكائن) عنها ، مثل : القوة المغنطيسية أو اللون أو الرائحة .

ثم قسم ابن سينا الأفعال أربع مراتب : المرتبة الأولى : هى أن يكون فعل المتناول فى البدن بكيفيته فعلا غير محسوس إلا أن يتكرر أو يكثر .

والمرتبة الثانية : هى أن يكون الفعل أقوى من ذلك ، ولكنه لا يبلغ الضرر بالأفعال أو تغيير مجراها الطبيعى .

والمرتبة الثالثة : أن يكون فعلها موجباً لضرر بيِّن دون الإفساد أو الإهلاك .

والمرتبة الرابعة : أن يبلغ الفعل الإفساد أو الإهلاك ، وهذه خاصة الأدوية السامة .

ثم ميز بين الغذاء والدواء باختلاف تفاعلها مع البدن ؛ فقد يتغير الشيء المتناول ولا يغير البدن ، فإذا تشبه بالبدن كان غذاء ، وإذا لم يتشبه به كان الدواء المعتدل .

وقد يتغير ويغير البدن ، فإذا تشبه به كان غذاءً دوائياً ، وإذا لم يتشبه به كان دواء مطلقاً .

أما إذا لم يتغير وغير البدن فهو السم .

وبهذا التقسيم الأنيق وضع الفيصل بين الدواء والغذاء فى الاستحالة إلى مادة البدن أو عدم الاستحالة .

وبالإضافة – نظر إلى سهولة تحويل ما يرد إلى البدن إلى شيء مشابه له فقيل على سبيل المثال : إن النبيذ وصفار البيض وعصير اللحوم قريبة جداً إلى الدم ، وإن الخبز واللحم أقل قرابة إليه ، وإن ما يبعد عن طبيعة الدم هو الغذاء الدوائى ؛ كما أنه ميز بين الغذاء الغليظ والغذاء الرقيق ، وبين كثير الغذاء وقليله .

وبنيت على هذه المعطيات تقسيمات معقدة نسوق لها أمثلة مقتبسة من (القانون) :

إن النبيذ وعصير اللحوم وصفار البيض والبيض المغلى إغلاء خفيفاً – أغذية رقيقة وكثيرة الغذاء ؛ لأن أكثر جوهرها يتحول إلى غذاء .

والجبن والقديد والباذنجان غلاظ وقليلة الغذاء ، لأن ما يتحول منها إلى دم قليل .

والبيض المسلوق ولحم الأبقار غليظان ومغذيان .

وكل من الجلاب والبقول الخفيفة والتفاح والرمان رقيق وقليل الغذاء .

ثم إن الغذاء قسم على حسب طبيعة الكيموس المتولد عن هضمه : فزعم أن الكيموس المتولد من صفار البيض والنبيذ وعصير اللحوم والخس والتفاح والرمان محمود .

والفجل والخردل وأغلب البقول رقيقة قليلة التغذية وتولد كيموساً رديئاً .

والرئة رقيقة كثيرة التغذية وتولد كيموساً رديئاً .

والبيض المسلوق والضأن غليظان كثيرا التغذية ويولدان كيموساً محموداً .

ولحم الأبقار والبط والخيل غليظة ومغذية وتولد كيموساً رديئا ، والقديد غليظ قليل التغذية ويولد كيموساً رديئاً .

ولنعد إلى غموض الحد بين الغذاء والدواء ، فإن عدم الدقة فى التمييز بينهما واضح من ورود الأطعمة ، وعددها يزيد على مائة صنف ، فى الكتاب الثانى من

القانون ، وهو الكتاب المخصص للأدوية المفردة ، وقد وردت أوصافها فى الصيغة التى وصفت بها نفسها العقاقير والسموم . وإلى القارئ بعض النماذج منها :

الأرز : حار يابس ، ويبسه أظهر من حره ، ولكن قوماً قالوا : إنه أحر من الحنطة يغذو غذاء صالحاً ، فإذا طبخ باللبن ودُهن اللوز غَذَّى غذاء أكثر وأجود . . . مطبوخه بالماء يعقل إلى حد ، والمطبوخ باللبن يزيد فى المنى ولا يعقل إلا أن تزيد « الغلية » فى قشره . . . » .

الباذنجان : الحديث أسلم والعتيق منه ردىء وطعمه وطبعه كالقلى . وهو عند ما سرجويه بارد ، لكن الصحيح أن قوته الغالبة عليه الحرارة واليبوسة فى الثانية لمرارته وحرافته . يولد السوداء والسدد ، ويفسد اللون ، ويسود البشرة ويولد السرطانات والصلابة والجذام والصداع ، ويبثر الفم ، ويولد سدد الكبد إلا المطبوخ بالخل فإنه ربما فتح سدد الكبد ، ويولد البواسير ، وإذا طبخ فى الدهن أطلق أو فى الخل حبس » .

الباقلاء المصرى : لولا بطء هضمه وكثرة نفخه ما قصر فى التغذية الجيدة عن كشك الشعير ، بل المتولد منه دمه أغلظ وأقوى . . . وإصلاحه إطالة نقعه وإجادة طبخه ، وأكله بالفلفل والملح والحلتيت والصعتر ونحوه مع الأدهان . وهو قريب من الاعتدال فى المزاج وميله إلى البرد واليبس أكثر وفيه رطوبة فضلية . . . وهو يجلو قليلا وينفخ جداً . . إذا ضمد به شعر الصبى رققه ، وإذا ضمد به عانة الصبى منع نبات الشعر . . . . يجلو البهق والكلف والنمش . . . ينفع من تشنج العضل ، ويضمد بمطبوخه النقرس مع شحم الخنزير . . . مصدع ضار لكل من يعتريه الصداع . . . جيد للصدر ومن نفث الدم ومن السعال ، وإن خلط مع عسل ودقيق الحلبة ينفع من أورام الحلق واللوزتين ، وضماده جيد لورم الثدى وتجبن اللبن فيه . . . عسر الانهضام غير بطىء الانحدار والخروج . . . »

اللحم : أفضله لحم الضأن والفتىّ من الماعز والعجاجيل . . . والجدى أقل فضولا من الحمل ولحم الرضيع عن لبن محمود جيد ، وأما عن لبن غير محمود فهو ردىء ، ولحم الهرم من الغنم ردىء ، وكذلك لحم العجيف ولحم الأسود أخف وألذ ، وكذلك لحم الذكر ، والأحمر المفصول من الحيوان الكثير السمن والبياض أخف . . وأفضل اللحم وأمرؤهُ غائره بالعظم أيضاً ، والأيمن أخف وأفضل من الأيسر ، وأوسط العضل أنقى اللحم من العيب ، وأما اللحم الرخو الذى لا عصب عليه فإنه ربما لذ ، وخصوصاً ما كان بسبب توليد اللبن مثل لحم الثدى أو لتوليد اللعابية مثل لحم أصل اللسان . . إلخ » .

ثم ذكر عضواً بعد عضو وحيواناً تلو حيوان ، والتدرج والدجاج والقباج والطياهج والدراريج والتيس ، مضيفا أن لحوم السباع رديئة وجميع الطيور الكبار المائية وذوات الأعناق الطوال والطواويس والخربان والحمامات الصلبة والقط والعصافير كلها رديئة . وأضاف قول النصارى بأن خير لحوم الوحش لحم الخنزير البرى . ثم تناول هذا الباب لحم الطير أجمع فقال : إنه أيبس من لحم ذوات الأربع ؛ ووصف لحم البقر بأنه أيبس من لحم الماعز ، وأن لحم الماعز يابس وأعسر هضماً من لحم الضأن ، ولحم الأرنب حار يابس ، ولحوم كبار الطير والإوز والخربان غليظ ، وأما لحوم البط والمائيات فشديدة الرطوبة وقريبة فى ذلك من لحم الضأن ، واللحم السمين والإلية حارة رطبة .

وعن أفعال اللحوم قال ابن سينا : إن اللحم غذاء مقو للبدن وأقرب غذاء استحالة إلى الدم . ومطجنه ومشويّه أيبس ، وغذاء مسلوقه أرطب ، والمطبوخ بالأبازير والمرى ونحوه قوته قوة أبازيره ، والسمن والشحم ردىء الغذاء ، قليله ملطف للطعام ، وإنما يصلح منها قدر يسير بقدر ما يلذذ ، واللحم المملوح ، وإن كان فى الأصل مرطباً – يعود مجففاً أشد من تجفيف كل لحم ، وغذاؤه قليل . . .

إلخ . ثم أفرد للأمراض التى تنتج عن مختلف اللحوم .

هذا عن الأطعمة وأنواعها ، وكان للأطباء آراء فى الغذاء عامة ، من حيث الكم والكيف ، ومناسبته للمرضى والصبيان والمسنين ولفصول السنة . . إلخ ، وإن كانوا لم ينحرفوا عن لبّ ما سبق ، تماشيا مع عدم التمييز بين الدواء والطعام .

وخصص الرازى ما يُربى على ستين فصلا من (فصوله) وعددها ثلثمائة وسبعة وسبعون لمياه الشرب وللغذاء عامة وللنبيذ ولتدبير غذاء المرضى (١٣٨) .

أكد - أول الأمر - ضرورة الأكل فقال :

كل ما ينمو فإن الذى يصير إليه من غذائه يفضل على ما يتحلل منه ، وكل ما يذبل فإن الذى يتحلل منه يفضل على ما يستحيل إليه .

لما كانت جثة الإنسان فيما يتحلل منه لم يمكن أن تبقى أو أن تنمو إلا بأن يكون ما تحصل عليه أكثر مما يفصل منه . والذى يحلل الأبدان حرارتان : الحرارة الواردة من الهواء والحرارة الغريزية .

والحرارة قد تحيل شيئاً عن آخره كفعل النار فى النفط ، أو قد تحيل منه بعضاً وتترك بعضاً : كالنار تحيل بعض الخشب وتترك بعضه .

والاغتذاء قد يكون غير موافق لأحد الأسباب الآتية :

(ا) لأنه لا يلائم المغتذى فى جوهره : كالأشياء المعروفة برداءة الغذاء نحو السمك المالح والخبز اليابس والثوم والبصل ؛ إذ إنه يجب فى الغذاء أن يكون موافقا للمغتذى .

(ب) لأنه - وإن كان موافقاً فى جوهره - غير موافق فى كميته : كالخبز النقى ، إذا كثر أحدث التخمة ، وإذا قل أحدث الفساد التنشيطى ؛ لأن مقدار الغذاء يجب أن يكون بقدر الحاجة لا أقل ولا أكثر .

(جـ) لأنه لم يؤخذ فى وقت الحاجة ، مثلا إذا أخذ على غير جوع ، والوقت المناسب هو عند تحرك الجوع الصادق والمعدة نقية لا بلغم فيها ولا مرار ولا ضعف .

(د) لأنه خلط بما يفسده كالخبز النقى إذا أكل بالأدم الردىء كالكوامخ .

(هـ) لأنه لم يبق فى المعدة وقتاً كافياً فينزل غير منهضم .

(و) لأنه بقى أطول من المدة التى ينبغى .

(ز) لأنه قدم قبله ما كان ينبغى أن يتبعه وبالعكس ، والترتيب الموافق هو أن يقدم الأرق والأضعف قبل الأغلظ والأقوى والأوفق .

(ح) لأنه أكل معه ما يحتاج إلى زمان أطول أو أقصر لانهضامه .

(ط) لأنه صادق من خارج هواء غير موافق ، أو حركة غير موافقة .

ثم إن الشهوات قد تملى اختيار غذاء ليس بأوفقه ، ولكنْ تميل إليه للذته والطعام الذى إليه الشهوة أميل – وإن كان أردى مما لا يشتهى – ينبغى أن يؤثر على مالا يشتهى إلا أن يكون ردىً الخلط جداً . ومع ذلك لا ينبغى أن يدمن : ذلك أن المعدة تُحْوىَ على المشتهى وتُجيد هضمهُ ، فتصلح أكثر رداءته وتمتارُ الطبيعة منه امتياراً أكثر فتقوى به .

أما فى تغذية المرضى فقد أوصى بالتالى :

مِلْ إلى ما يشتهيه العليل فى تغذيته أدنى ميل ولو كان رديئاً وأعطه الشىء اليسير ، ولاسيا إذا كان ساقط القوة ، أو ضعيف الشهوة ، أو كان تقلّب النفس والقىء لازماً له .

وإذا اتفق أن يكون ما يشتهى العليل نافعاً كان كما يقال فى المثل : « أتم السعادة هوىً وأوفق عقلا » .

لا تحرّم على من ليس من عقلاء الرجال ، ولا على الملوك والصبيان ترك شىء يشتهونه بواحدة ، لكن رجّهم ، ومنّهم ذلك ، وأنلهم منه اليسير . ولا تعدهم

بالكثير . . . وهوِّل عليهم فى الاستكثار منه ؛ فإنك تدفعهم بذلك عن أن يأكلوا منه سراً شيئاً كثيراً .

ما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية . . والماهر بطبائع الأغذية فى ذلك متسع .

وإليك بعض أمثلة من تقدير ابن سينا للغذاء :

يجب أن يجتهد حافظ الصحة فى ألّا يكون جوهر غذائه شيئاً من الأغذية الدوائية مثل البقول والفواكه وغير ذلك ؛ فإن الملطفة محرقة للدم ، والغليظة ، مبلغمة مثقلة للبدن ؛ بل يجب أن يكون الغذاء من مثل اللحم خصوصاً لحم الجدى والعجاجيل الصغار والحملان والحنطة المنقاة من الشوائب المأخوذة من زرع صحيح لم تصبه آفة ، والشيء الحلو الملائم للمزاج ، والشراب الطيب الريحانى . ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك إلا على سبيل التعالج والتقدم بالحفظ . وأشبه الفواكه بالغذاء التين والعنب الصحيح النضيج الحلو جداً والتمر فى البلاد والأراضى المعتاد فيها ذلك . . .(ا و١٦٣)

ويجب ألا يؤكل إلا على شهوة ولا يدافع الشهوة إذا هاجت ، ولم تكن كاذبة كشهوة السكارى . .

ولا شيء أردأ من شبع فى الخصب يتبعه جوع فى الجدب وبالعكس ، والعكس أردأ .

وإذا وقع الخطأ فتنوول شيء من الأغذية الدوائية فيجب . . . أن يُتحرز من سوء المزاج المتوقع منه باستعمال ما يضاده عقيبه : فإن كان بارداً مثل القثاء والقرع عدل بما يضاده مثل الثوم والكراث ، وإن كان حاراً عدل بما يضاده أيضاً مثل القثاء وبقلة الحمقاء . . .

ويجب أن يكون النوم على اليمين . . ثم ينام على اليسار ثم ينام على اليمين .

واعلم أن الدثار ورفع الوسادة معين على الهضم ، وبالجملة أن يكون وضع الأعضاء مائلا إلى تحت ليس إلى فوق .

وتقدير الطعام هو بحسب العادة والقوة ، وأن يكون مقداره فى الصحيح ما لا يثقل ولا يمدد الشراسيف ولا ينفخ ولا يقرقر ولا يطوف ولا يعرض غثى ولا شهوة كلبية ولا سقوط ولا بلادة ذهن ولا أرق ولا أن يوجد طعمه فى الجشاء بعد زمان ، ولا أن يعرض منه عظم نبض مع صغر نفس ؛ فإنه إنما يعرض بسبب مزاحمة المعدة للحجاب .

ومن كان يعجز عن هضم الكفاية كثّر عدد اغتذائه وقلل مقداره .

والسوداوى يحتاج إلى غذاء مرطب كثيراً مسخن قليلا .

والصفراوى إلى ما يرطب ويبرد .

ومن كان دمه حاراً - إلى أغذية باردة قليلة الغذاء .

ومن كان دمه بلغمياً - إلى أغذية قليلة الغذاء فيها سخونة وتلطيف .

أما عن ترتيب الغذاء فقد قال - كما قال من قبله الرازى : إنه يجب أن يراعى عدم تناول ما هو رقيق سريع الهضم على غذاء قوى أصلب منه ، فينهضم قبله وهو طاف عليه ولا سبيل إلى النفوذ ، فيعفن ويفسد ما يخالطه .

ويجب ألا يتناول مثل هذا الطعام المزلق وفى إثره طعام صلب ؛ فإنه ينزلق معه إلى الأمعاء ولمّا يستوف الحظ من الهضم .

ومن أهم نصحه قوله ، وهو قول يدل على تجربة طويلة وحكمة رشيدة : وليغلب التجربة فيه على القياس ؛ فرّبّ غذاء مألوف فيه مضرة أوفق من الفاضل غير المألوف ، ولكل سحنة ومزاج غذاء موافق مُشاكِلٌ فإن أريد تغييرها فإنما يأتى بالضد .

وكان أهل الفكر ينهون عن الإسراف فى الطعام ، وأولهم الرسول ﷺ فى

أحاديث شريفة عدة[139] .

« المؤمن يأكل فى مِعى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (صحيح : ٧ ، ١٢) ، « أصل كل داء البردة » ، والبردة هى التخمة ؛ لأنها تبرد حرارة الشهوة ، « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه : بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه : فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه » .

وقال تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) الأعراف / ٣١ .

وقال عمر رضى الله عنه :

« إياكم والبطنة فإنها مفسدة للجسم ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، عليكم بالقصد ، فإنه أصلح للجسد ، وأبعد عن السرف[139] .

وفى هذا المعنى روى الجاحظ[140] فى (البخلاء ص ٢٢٠) الواقعة الآتية ومغزاها واضح ، قال :

« شهدت الأصمعى يوماً وقد أقبل على جلسائه يسألهم على عيشهم وعما يأكلون ويشربون ، فأقبل على الذى عن يمينه فقال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : اللحم ؛ قال أكلَّ يوم لحم ؟ قال : نعم ؛ قال : وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة ؟ قال : نعم ؛ قال : بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب : كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر !

ثم سأل الذى يليه ، قال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : الإدام الكثيرة والألوان الطيبة ، قال : أفى إدامك سمن ؟ قال نعم ؛ قال : فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟ قال : نعم قال : ليس هذا عيش آل الخطاب ، كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها فى قِدْر واحدة وقال : إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً !

ثم يقبل على الآخر فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال اللحم السمين والجدى الرضيع ؛ قال : فتأكله بالحوارى ؟ قال : نعم ؛ قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا أو ما سمعته يقول : أترونى لا أعرف الطعام الطيب : لباب البر بصغار المعزى ، ألا تراه كيف ينتفى من أكله وينتحل معرفته ؟

ثم يقبل على الذى يليه فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ فيقول : أكثر ما نأكل لحوم الجزور ، ونتخذ منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء ؛ قال : أفتأكل من أكبادها وأسنمتها وتتخذ لك الصباغ ؟ قال : نعم ؛ قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أقدر أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً وصلائق وصناباً ؟ ألا تراه كيف ينكر أكله ويستحسن معرفته ؟

ثم يقول للذى يليه : أبا فلان ، ما إدامك ؟ فيقول : الشبارقات والأخبصة والفالوذجات ؛ قال : طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ! حتى أتى على آخرهم ، كل ذلك يقول : بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب يضرب على هذا ! ... . الخ » .

ولكن الغذاء المعتدل والمعقول تحول مع الزمن ومع الثراء المتزايد ، والامتزاج بالفرس والشوام والبيزانطيين والمصريين ، وأصبح من السخاء مالا يتصوره العقل ، ولنأخذ مثلا وصف الأكلة التى سماها عبد اللطيف البغدادى [١٤١] « رغيف الصينية » :

« ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته : أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ، ويعجن مع خمسة أرطال ونصف شيرجاً عجن

خبز الخشكنان ، ثم يقسم بقسمين ، ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس . . . قطرها نحو أربعة أشياء ثم يعبأ على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق مقلوبا بالشيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوز ونحو ذلك ، ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ، ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وخمسون فرخاً بعضه مشوى ، محشو بالبيض ، وبعضه محشو باللحم ، وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو نحو ذلك ، ثم يشور بالسنبوسك والقطايف المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها وإن شئت أن تزيده خروفاً آخر . . شرائح فلا بأس وكذا جبناً مقلواً فإذ نضد ذلك وصار كالقبة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمدد رغيفاً ، ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان . . . وبعد ينضج فى التنور ويرش عليه ماء ورد ومسك .

وقد كتب الكثيرون فى هذا المعنى ، معنى إيثار الأكل الفاخر على الغذاء المتواضع البسيط ، ولنذكر منهم الكاتب الهزلى الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى الذى – وإن كان من العلماء – وضع فى القرن السابع عشر الميلادى قصيدة هزلية وشرحها فى كتيب أسماه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف »(١٤٢) ذكر فيه خطبة زعم أنه ألفها فى المأكولات ، وهذا المؤلف فيه وصف اجتماعى دقيق لحالة الفلاحين فى عصرهم وبؤسهم وظلم الحكام لهم وأنواع عاداتهم فى المأكل والمشرب ، وفيه تدوين للغة الفلاحين كما ينطقونها ، وفيه حكايات ظريفة مما سمعها أو شهدها . ويضيف الأستاذ الدكتور أحمد أمين(١٤٣) أن المؤلف رأس المدرسة التى عنيت بالتنكيت عن طريق اللعب بالنحو والخروج من باب إلى باب من غير مناسبة والمفارقات ونحو ذلك .

ذكر الشربيني فى هذا الكتاب خطبة ألفها فى المأكولات ، مزح فيها الجد بالهزل وبالمحاكاة الساخرة للخطب المحذلقة ، قال :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق الذى وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقرى للعسل النحل رفيق ، أحمده حمد من عنده من الجوع دسيسة ، وأغاثه الله بقصعة من البسيسة بالفطير الرقيق ، فملأ منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق ، وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق .

(أيها الناس) مالى أراكم عن الزردة بالعسل النحل غافلون وعن الأرز لمفلفل باللحم الضانى تاركون .

وعن البقلاوة فى الصوانى معرضون ، وعن الأوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخوانى إلا حال « المفلسون » وأفعال الفقراء « المقلون » فجدوا حمكم الله فى تحصيل الدراهم ؛ لتغتنموا المآكل النفيسة والمطاعم اللذيذة وقد بل : لذة الدنيا أكل اللحم ، وركوب اللحم ، فمن أنعم الله عليه فليشكر ، ومن نرمه فليصبر ، وعليكم بالأرز باللبن ، فإنه طعام جيد حسن ، وصاحبه أبرك صباح خصوصا عند الفلاح إذا جاء وحلب بقرته ، وأتت زوجته بالدست علقته وصبت فيه اللبن ، وقادت عليه وحركته بالأرز الأبيض ، وطبخته وفى صحون غرفته فجاء الشيخ الكبير وقعد وثنى ركبته ، فعند ذلك يا إخوانى صفت وانى ، ولا ذكل إنسان بإنسان ، فلا ترى إلا (الأيادى) تقطع وأحنكة تبلع ، راديم تفرقع ، وحلق يتقلقع ، والعين من كبر اللقمة تدمع ، والبطن لا تشبع بل يد انفعالا وهو يقول : جل ربنا وتعالى ، فإذا سبقك أخوك بلقمة فبادر إلى جدع بته بلكمة ، واغتنموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المغلظة لعدس والبيسار والمدمس والفول الحار والبسلة والكشك بالفول وجبن النور

المعمول فإنها تورث الأرياح وليس فى أكلها صلاح ، وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضانى ؛ فإنه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ففيه حديث وارد ، واحمدوا الله أيها الأغنياء المتنعمون ، واصبروا أيها الفقراء .

نسأل الله أن يمن علينا وعليكم بالأطعمة الفاخرة ، ويرزقنا وإياكم الراحة فى الدنيا والآخرة ، وأن يجعلنا وإياكم من الآكلين المتنعمين ، وينجينا وإياكم من موارد الجيعانين المقلين ، وأن يغفر لنا ولكم ولجميع المسلمين آمين فاستغفروه يغفر لكم يا فوز المستغفرين .

ثم دعا هذا الدعاء : وارض عن الأربعة الأعيان الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن والتين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة الماوردية والمهلبية والشعرية بالزغاليل المرئية والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر والكنافة المبتلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر والقطائف الغارقة بالسمن والعسل والقرع المحشى باللحم والبصل والبقلاء الموصوفة وخرفان اللقمة المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا الله وإياكم بهم أجمعين .

وكأنَّ المؤلفين فى الأكل خشوا تهمة الشراهة والانحراف ، وأحسوا بضرورة الدفاع عن اهتمامهم بالطيبات ، فيستهلون كتبهم بحمد الله على ما من به على البشر ، ويحثون على الاستمتاع به لأن – على حد قول «كتاب الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب» لأحد الأمراء الأيوبيين «فى تناول الطيبات تقوية على العبادة» ولننقل للقارئ هذه الديباجة الطويلة (١٤٤) :

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر يا كريم

الحمد لله الواحد الخلاق ، المتكفل بالأرزاق ، المستحق للمحامد على الإطلاق ، أحمده حمداً يكون بمزيد رزقه كفيلا وعلى شكر ما من به علينا دليلا ، حيث قال فى تكريم بنى آدم : (ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء / ٧٠ .

أنكر على من حرم طيب الرزق على عباده ولامه ، فقال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) الأعراف / ٣١ ، وأبرز تعالى فى كتابه العزيز أمره الكريم فى معرض الامتنان على خلقه فقال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك / ١٥ .

بعث محمداً صلى الله عليه وعلى آله بتوحيده إذ قال غيره بثالث ، وبين لأمته أحكام الوقائع والحوادث بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث اختصه فى كل خير بأوفر نصيب « وحبب إليه من الدنيا زهرة النساء ورائحة الطيب ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة أكرم محب لأعز حبيب (وبعد) .

فإنه لما كان معظم اللذات الدنيوية والأخروية فى تناول شتى المآكل والمشارب وكان تطيب الثياب والبدن مما يقرب إلى الأحباب والحبائب ، واقتضى ذلك سلوك تطيبها للآنس والآكل والشارب ، وفى تناول الطيبات تقوية على العبادة للعبيد ، وهى تستخرج من القلب خالصة الحمد ، فلذلك كُررت المنةُ بها فى كتاب الله

العزيز ، وأخرج ذكرها مخرج المدح والتمييز . فلهذا جمعت هذا الكتاب وسميته كتاب الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب ، ولم أضع فيه شيئا إلا بعد أن ركبته مراراً وتناولته مدراراً واستخلصته لنفسي ، وباشرته بذوقى ولمسى ، وقد بدأت فيه بالطيب لشرف قدره وطيب عرفه ونشره وانتشار ذكره ، ثم سقت الفصول بعده على ما تراه من الترتيب ، وأرجو من كرم الله تعالى أن أفوز من الثواب بأوفى نصيب ، وأسأل الله أن ينفع بما وضعته فيه إنه قريب مجيب .

* * *

وبالإضافة فقد ربط الأطباء بين الأفلاك وفصول السنة وبين الجسم الآدمى ، ولم يفلت الغذاء من هذا الاتجاه ، ولنضرب مثلا له ما ورد فى (كتاب الأزمنة) ليوحنا بين ماسويه [١٤٥] .

يقول ابن ماسويه :

تشرين الأول : برجه الميزان وسلطانه المرة السوداء ، وينفع فيه من الطعام اللحم السمين والرمان المز والجزر والقرظ (كراث المائدة) الرومى والجرجير وأصناف الفاكهة بعد الطعام والسمن والعسل والحلاوى .

ويستحب أن يشرب فى أوائل النهار جرعة من الماء الحار على الريق ، ويستنشق الطيب ، ويتجنب الجماع والحمام وأكل البطيخ والقثاء والخيار والسلق ولحم البقر واللبن الحامض والحبوب غير الرز ، ولا يشرب فيه الماء البارد لأنه يزيد فى المرة .

تشرين (الثانى) : برجه العقرب وسلطانه المرة السوداء ، ينفع فيه أكل لحم الطير مطبوخاً بالحمص والقلايا والثريد بالثوم وسليقة الجزر والسلجم ، ويشرب الماء الجارى والماء الحار وماء الجزر ، وهو أن يؤخذ الجزر فيقطع ويطبخ ، ثم يجعل فى مائه العسل وعروق الزنجبيل ومثقال أنيسون وعشر حبات فلفل ، ويشرب فى

أول النهار وآخره ، فإنه ينفع من عرق النسا ووجع الوركين والصلب . ويدخل الحمام فى أول النهار . . . ويتجنب فيه شرب الماء فى الماء لانه يتخوف منه حدوث الماء الأصفر فى العين ، ويتجنب فيه أكل السمك الطرى والمملوح وصيد الماء وكل شىء مالح ، ويقلل من الجماع ويتجنب السمن والعسل والبقول .

كانون الأول : برجه القوس وسلطانه البلغم ، فى هذا الشهر يجامع الرجل خلاله لالتماس الولَد ؛ لأن طبائع النساء تلين فى هذا الشهر دون الشهور ، وينفع فيه أكل كل حار وحريف ، ويشرب على الريق جرع ماء حار ، ويكثر أكل القطائف ، ويكثر من دخول الحمام والمشى والتعب ، وينعم الجسم بالدهن ، ويتجنب أكل لحوم البقر والباذنجان والترنج ، ويكره شرب الماء بعد النوم خوفاً من حدوث الماء الأصفر .

كانون (الثانى) : برجه الجدى وسلطانه البلغم ، الاغتسال فيه بالليل أفضل منه بالنهار ، ويحذر من السفر البعيد ، ويقل من الجماع ، وينفع فيه أكل كل طعام حار وحريف والسمن والعسل والحلاوى كلها ولحم الضأن والثريد بالثوم وسليقة الجزر والكراث . . . ويشرب ماء الجزر بعد الطعام ؛ فهو نافع ؛ ويتجنب فيه أكل لحم البقر ولحم الماعز والسمك وكل شىء يخرج من الماء والبقل والفجل والبصل ، ويتوقى فيه أكل السهل الطرى والمالح وكل شىء بارد رطب ، ولا يكثر من البقول مثل السلق والقنبيط والأسبانخ .

شباط : برجه الدلو وسلطانه البلغم . وفى هذا الشهر يستحب أكل الحلاوى والطير والصيد كله والكماة والثوم والفاكهة اليابسة والأترج والرمان وقصب السكر ، . . . ويكثر فيه أكل الحمص المطبوخ والرز والجوز واللوز والصنوبر ويشرب العسل وكل شىء حلو يؤكل فيه هو نافع والتمز والتين ، ويتجنب فيه أكل الجبن العتيق والسمك الطرى والمملوح واللبن والعدس والبصل والكراث والسلق

والخل وكل شيء مالح وحريف ، ويتوقى أكل لحم البقر والماعز ، لأنه يضر فى هذا الشهر .

آذار : برجه الحوت وسلطانه الدم : ينفع فيه أكل الحلاوى والعسل والفاكهة اليابسة والرز والبيض المشوى وشرب ماء الحلبة . ويشرب النبيذ بماء حار فى أول النهار ، وفى آخره بماء بارد . ويؤكل التّرياق ؛ فإنه يحرق البلغم وينشف المرة ، ويذهب الرياح ويطرد المليلة ، ويتجنب فيه أكل السمك الطرى والمملوح والقديد والبصل والثوم وكل شيء مالح وحامض وحريف .

نيسان : برجه الحمل وسلطانه الدم . وفى هذا الشهر يهيج الدم ، ويصلح الفصد ، وتشرب الأدوية السهلة . وينفع فيه كل بارد رطب ، ويشرب فيه الأسوقة والرُّب ، ويشرب كل يوم على الريق جرع ماء حار ، وتؤكل لحوم الصيد والخردل والخل والزيت والبصل والبقل والقرع وكل شيء رطب فإن المرة فيه متحركة ، ويتجنب أكل الفجل وكل حلو ومالح ، ويتجنب فى هذا الشهر خاصة أكل الدجاج ويقل من الجماع .

آيار : برجه الثور وسلطانه الدم ، وفى هذا الشهر ينفع أكل كل بارد رطب ، ويؤكل اللحم والشوىّ والسمك الطرى والبيض والهلبون والبصل والفاكهة اليابسة والحلاوى ، ويتجنب فيه أكل كل حار يابس والسمك المملح والرءوس والأكارع لأنه يخاف من ذلك اليرقان الشديد ، ويتجنب لحم الأرانب وأفراخ الحمام ولحم البقر ولحم الماعز والوحوش .

حزيران : برجه الجوزاء ، وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر ينفع أكل كل بارد رطب ولحم البقر ولحم الماعز والطير والصيد والسمك الطرى واللبن والكوامخ والمخلل والقرع والبقول والخيار والفاكهة الرطبة ، ويتجرع كل يوم ثلاث مرات الماء البارد على الريق . . ويشرب ماء الورد بالعسل والسوس ،

ويؤكل فيه الخردل ويكثر من شرب اللبن والحليب ، وتستعمل ألوان الأشربة العسلية والأسوقة ، ويتجنب فيه أكل كل حار يابس وشم المسك والعنبر واللبان ، ويتجنب فيه اللوز والفاكهة اليابسة والعسل وحده والأنبذة الحارة وأكل العدس خاصة أكثر من كل الحبوب ، ويتجنب الجماع خاصة جماع المرضع .

تموز : برجه السرطان ، وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر يتجنب الفصادة والحجامة وشرب الدواء ، ويستعمل كل بارد رطب ، ويتجنب كل حار يابس ، وتؤكل الفواكه والبقول وطعام الحصرم والكشىء (هو الشواء المنضج) ، وينفع شرب الماء البارد على الريق ، وما يشرب فيه من الشراب يكون كثير المزاج بالماء البارد ، ويتجنب كل ما يتجنب فى حزيران ويقل من الجماع والطيب .

آب : برجه الأسد : وسلطانه المرة الصفراء حار يابس ، وفى هذا الشهر يكره أكل الفاكهة ، ولا ينفع أكل اللبن والبصل ، وينبغى أن يقل من الشرب وما شرب فيه من شراب يكثر مزجه بالماء البارد ، ويتجنب فيه أكل الفاكهة والجماع وكل ما يتجنب فى حزيران وكل شىء مالح والماء الحار .

أيلول : برجه السنبلة وسلطانه المرة السوداء بارد يابس ، وفى هذا الشهر يصلح الفصد وشرب الدواء المسهل ، وتكره الحكماء فيه الحجامة ، وينفع أكل كل حار لين ، ويؤكل السمن والعسل وأصناف اللحوم والحلوى ، ويجتنب أكل كل بارد رطب ويابس والبقل حتى يصيبه المطر والبطيخ والخيار ولحم البقر ، وتكره فيه الحجامة لئلا تقوى المرة السوداء .

* * *

شغف المثقفون فى القرون الوسطى بالاطلاع على المؤلفات الشعبية الخاصة بالصحة مثلما يميلون اليوم إلى الكتب الطبية المبسطة وإلى أحاديث الإذاعة الطبية ،

ومن أكثر هذه المؤلفات فى القرون الوسطى انتشاراً مجموعة من القواعد الخاصة بتدبير الغذاء والراحة والرياضة ، وضعها أعضاء مدرسة سالرنو بجنوبى إيطاليا لتقديمها إلى ملك من ملوك إنجلترا وعرف باسم(١٤٦) Regimen Sanitatis Salernitanum .

ومدرسة سالرنو إحدى القناطر الرئيسية التى عبرها الطب من العرب إلى الغربيين : بدأت مدرسة هذه المدينة تحت لواء أبقراط ، فسميت حين ذاك بالمدينة الأبقراطية ، ثم دخلت فى نطاق الطب العربى فى القرن الحادى عشر الميلادى عندما تولى التدريس فيها قسطنطين الأفريقى الذى لم يتورع عن نقل المؤلفات العربية إلى اللاتينية دون ذكر أصولها !

ولنذكر من دستور سالرنو الذى ساد الطب الأوربى علماً وعملا قروناً طويلة ما يكفى الدلالة على مدى نفوذ العرب فيه .

« على الطبيب الحكيم وصف حجم الأكل ونوعه ووقته وكيفيته خوفاً من أن يتلف المزاج تلفاً لا رجوع عنه » .

« على من يصف الغذاء مراعاة ستة أمور : النوع ، الفائدة ، الوقت ، المكان ، العدد ، والكمية . ومن لا يراعى هذه الأمور يحدثُ ضراً ولا يشفى ، وأمثاله ليسوا بالقليلين » !

« اعلم أن لحم القلب ردىء لأنه غليظ وعسر الهضم وأن (الكرشة) لا تملأ البدن بعصير جيد ، وأن الرئة رقيقة ، وأن الأجزاء الخارجية أفضل ، وإذا كان المخ غذاء جيداً - وهذا محل نقاش - فإن مخ الدجاج هو أفضله وأسرعه انهضاماً ، وأن الشبت طارد للأرياح » .

« إن قشر جوزة الطيب يشرح القلب والدماغ ، يميل إلى المسك والرئة إلى عرق السوس ، والطحال يستريح إلى الكبر ، والمعدة إلى الخولنجان .

اللبن يملأ الأوردة ولكنه ردىء لمن يشكو الصداع ، والجبن بارد وغليظ

وقابض ، ويجب أكله بالخبز الجيد ، وهو جيد للأصحاء ، ولكنه ردىء لمن يشكو عسر الهضم .

غذاء الجبن الطازج ، والنخاع ، وكل لحم لذ طعمه ، والنبيذ اللطيف ، والبيض الطرى - غذاء جيد .

يؤكل الخوخ بالنبيذ ، والجوز مع العنب ، والزبيب ينفع الرئة ويضر الطحال ، ينفع الكبد إذا انتزع عنه جلده ونواياه .

أما اللفت فإنه صديق المعدة والرئة وطعمه لذيذ ويدر البول ، ولكنه يجلب الأرياح ويفسد الأسنان وإن أكل نيئا فإنه يسبب مغصاً شديداً .

والهال يطرد الريح ، والزعفران يجلب السعادة ويصلح الكبد ، والبنفسج يزيل السكر والصداع والزكام ، والكراث يساعد النساء على الإنجاب ، والخبازى تلين وتعيد الطمث ، والفلفل يذيب البلغم ويخفف السعال ويساعد على الهضم ومما يضر النظر الثوم والعدس والفلفل والبصل والفول والكراث والخردل .

تتمتع ستة أصناف بقوى خفية تقاوم السموم ، وهى الكمثرة والثوم وبذور الفجل والجوز والشلجم والسذاب وعلى رأس هذه القائمة الثوم .

وهناك نصيحة تبدو منقولة عن ابن سينا نقلا : « يفضل الكبير من السمك الطرى والصغير من السمك الصلب » .

وينتهى دستور سالرنو بهذا الدعاء : « يا قارئ قواعد الطب ، أسأل الله تعالى ألا يحوجك إليه » .

كثرت المصنفات فى هذا الموضوع ، وسنكتفى لإظهار مدى اعتماد الغرب على العرب بذكر مؤلف ليحيى بن عيسى بن غزلة المتوفى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٠٠ م) الذى نقله (جامبينوس) بأمر من شارل دى أنجو ملك نابولى (١٤٧) وقد احتفظ بعض هذه المؤلفات بأسمائها العربية فسميت Tacuinum Sanitatis ، وهى

تسمية مشتقة من كلمة « تقويم »العربية ، وما يزال لفظ (تاكوينو) Tacuino شائعا فى إيطاليا بمعنى (نتيجة) أو (رزنامة) .

لم تكن هذه المؤلفات محض « حبر على ورق » فقد كان الأطباء – كما سبق – يصاحبون العظام عند تناولهم أى غذاء لاختيار أنسب الأطعمة لمزاجهم . وقد قرّظ الكاتب الإسبانى (سرفنتس) عادات الأكابر وغرور الأطباء فى مشهد مأثور من مشاهد روايته الساخرة (دون كيخوتى [١٤٨]) حيث روى أن حاكم إحدى المقاطعات أوهم خادم دون كيخوتى ، وكان شرهاً أنه عيّنه محافظ جزيرة خيالية ، ثم أمر بتقديم أشهى الأطعمة له ، وأوصى طبيبه الخاص بسحب الأطباق ، الواحد تلو الآخر قبل أن يتذوقها الخادم المسكين !

قام الطبيب فعلا بسحبها من تحت أنف الخادم المحروم ، مردداً كل مرة : « يا سيدى ، إنى طبيب وإنى أتلقى راتبى فى هذه الجزيرة لتطبيب المحافظين ، واهتمامى بصحتهم يعلو اهتمامى بذاتى ! إنى أمضى الأيام والليالى فى دراسة صحة سيدى المحافظ ؛ لأتعرف على مزاجه ولأدبر له وسائل العافية . وأهم واجب يقع على عاتقى هو حضورى فى أثناء غذائه وعشائه ؛ لأغذيه بما أراه لائقاً ولأثنيه عما أراه ضارًّا . ولذا فقد أمرت باستبعاد الفاكهة ؛ لأنها مفرطة الرطوبة والطبق الآخر ؛ لأنه حار تُبِّل بإفراط ، والتوابل ، لأنها تثير العطش والشرب بكثرة . تهلك وتحرق الرطوبة الغريزية حيث تكمن الحياة ! » .

ثم قدم للخادم (سانشو بانسا) حجالا مشوياً ، فقدم الخادم يده إليه فأوقفه الطبيب قائلا :

لن يأكل سيدى منها أبداً طالما أنا على قيد الحياة ؛ لأن أبقراط نجم الطب قال : « إن كل تخمة رديئة ، ولكنّ أردأها تخمة الحجال » مزيفا قول أبقراط الحقيقى : « إن كل تخمة رديئة ولكنّ أردأها تخمة الخبز » .

الخلاصة

لقد حقق كل منهج سلك فى دراسة العادات الغذائية أهدافاً محددة ، ولكن لم يتح واحد منها جمع كل المعلومات التى يبتغى إخصائى التغذية الحصول عليها ؛ لأن لكل من المناهج - إلى جانب مزاياه - حدوداً ! .

فالنظرة الإقليمية قد تكشف عن الأنماط العريضة ، وتشير إلى فروض عامة ، ولكنها تهمل التفاصيل الدقيقة على صعيد القرية أو المنزل أو الشخص .

والنظرة البيئية التى راقت الأطباء وإخصائى التغذية فى السنين الأخيرة أهملت الإنسان وما لميوله وذوقه ونزواته من النفوذ : إذ إن مجرد توافر نوع من الغذاء لا ينبئ باستخدامه ؛ كما أن اختيار الغذاء الفاخر أو التفاخرى لا علاقة له بالمحدّدات البيئية ؛ فالغذاء يتطور على حسب الإدراك الحضرى ، والمجتمعات تستغل الموارد التى تشبع حاجاتها المادية والمعنوية على السواء ، الأمر الذى يُعجز الغريب عن إدراك مجموع الموارد المتاحة لمجتمع جديد عليه ، ويعرضه لحرمان لا يعانى منه أفرادُ هذا المجتمع الأصليون .

أما الثقافة البيئية فإنها تبين التفاعل بين الإنسان والطبيعة ، ولذا فإن قراراتها أقل حتمية من قرارات غيرها ؛ لأنها تتسم بالتوازن والواقعية ، غير أنها تتناول مناطق ضيقة وتهمل العوامل التاريخية وأسباب الإحجام عن بعض الأطعمة .

ويطلق المنهج الثقافى - التاريخى أبواب عالم آخر من الحقائق لا يتم الانتفاع بها إلا إذا ضمت إلى واقع الإنتاج الغذائى ؛ فهو فى هذه الحال يحدد صورة الأنماط الغذائية فى خلال حقب متتالية من التاريخ ، ويلقى الضوء على منابع العادات الحالية ، ولكنه لاعتماده إلى حد كبير على الأساطير والروايات الشفوية والتحليل

اللغوى يسمح بالشك فى بعض أحكامه .

والمنهج الانتفاعى يعرفنا دقائق التغذية فى محيط حضرى محدود ، ولكنه يقصر نظره على الحاضر ، ويهمل حصيلة المناهج الأخرى .

وبالرغم من التقدم المحسوس الذى حققه استخدام النماذج التنبئية النابعة عن المنهج الحسابى الكمى فإن قضايا هذا المنهج تتصف بالجمود وبعدم مجاراة الأوضاع المحلية : فلننظر مثلا إلى رفض زارعى المكسيك زراعة الحبوب ذوات الخواص الرفيعة الذى بدا أول الأمر بعيداً عن المنطق وعن روح التقدم ، غير أن التجربة بينت أن هذه الحبوب الدخيلة عرضه للإصابة بالآفات المحلية لعدم تعرضها السابق إليها .

ثم إذا تغلب الباحثون على هذه المشكلة فقد يحجم الزارعون عن زراعتها لاختلاف طعمها أو لونها أو قوامها عما اعتادوه ، أو لعدم قابليتها للتخزين أو لأسباب أخرى لم تؤخذ فى الحساب .

ولهذه الأسباب ، أى لافتقارنا إلى طريق موحدة نحو هدفنا – فإننا طرقنا أبواباً عدة لحصره . . ولكل باحث – بعد دراسة كل المناهج – انتخاب أكثرها ملائمة للمجتمع موضوع دراسته . وإذا كنا ركزنا فى بحثنا على الإنسان أى على ميوله وعقائده ونزواته فإنما فعلنا هذا لإيماننا بأن الغذاء يتم عن اختيار : أى أنه عملية ذهنية تتدخل فيها كل العناصر المكونة لهذا الكائن الفاتن ، هذا الحيوان الوحيد الذى يأكل بلا جوع ، وهو الإنسان .

المراجع

١ – على حسب قول بوزانياس (١٠ : ٢٤ : ١) ، وقد نسب البعض هذه الكلمة المأثورة لغيره .

2 — Grivetti, L., 1945, «Cultural Investigations on food and Diet.» Research among the ba Tlowka -ba Moshaweng, Southeast District, Republic of Botswana, Dept. of Geography, Unirversity of California, Davis, California.

٣ – أفلاطون طيماوس ، ٢٢ ، ب

4 — Porphyry, 1965, On abstinence from animal food, 4:6, London: Centaur Press.

٥ – ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، طبعة دار الفكر ببيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الأول ، ص ٦٠

6 — Daumas, F., 1956, «Postface à Platon à Héliopolis»; par R. Godel, Paris: Les Belles Lettres.

٧ – الدكتور أحمد أمين ١٩٥٣ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مؤسسة التأليف والترجمة والنشر ، ص ٦١ .

8 — Wissa Wassef, C., 1971, Pratiques Rituelles et Alimentaires des Coptes, le Caire: Institut Français d' Archéologie Orientale

٩ – تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ١٩٦٧ – ١٩٦٨ : دار التحرير للطبع والنشر .

10 — Athenaeus, Deipnosophists, 9: 375: C
11 — Huntington, E., 1943, The Geography of Human Productivity, Annals, Association of American Geographers, 33:13.
12 — Huntington, E.; 1945 Mainsprings of Civilization, PP. 424 - 458, New York: John Wiley and Sons.

13 — Semple, E. C., 1921, «Geographic Factors in Ancient Mediterranean grain trade, Annals Association of American Geographers, 11 : 47.
14 — Semple, E.C.,1922, «The influence of geographic conditions upon ancient Mediterranean stock - raising», ibid. 12 : 3
15 — Deffontaines, P., 1948, Geographie et Religions. Paris: Gallimard, PP. 367 - 394.

16 — Isaac, E., 1959, «Influence of Religion on the spread of citrus», Science, 129 : 179.
17 — Simoons, F.J. 1961. Eat not this Flesh. Madison: University of Wisconein.
18 — Jeffreys, M.D.W., 1967, «Pre- Columbian Maize in South- Africa», Nature, 215 : 695.
19 — Lea, D., 1969, Some non - nutritive functions of food in New Guinea, in: Settlement and Encounter. Geographical Studies presented to Sir Grenfell Price, P.P. 173 -184. New York : Oxford University Press
20 — Anderson, R.K., Calvo, J., Serrano, G., and Payne, G.C., 1946, «A study of the nutritional status and food habits of Otomi Indians in the Mezquital valley of Mexico», Amer. J. Publ. Health, 36: 883.
21 — Morcos, S. R., S.M. Hegazi and S.T, El- Damhougy, 1973, «Fermented Foods of common use in Egypt, II - The chemical composition of bouza and its ingredients», J. Sci. Food Agric. 24, 1157 - 1161.

22 — Budge, E.A.T.W, 1960, The book of the Dead, P. 336. New York: University Books.
23 — Isis and Osiris, 353 : 8 : F; 354 : 8 : A

24 — Frazer J ; G, 1959, The New Golden Bough, p. 450, New York : New American Library

٢٥ – أحمد بدوى ومحمد خفاجة ، ١٩٦٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، ص ١٣٦ . القاهرة : دار القلم .

26 — Erman, A., 1934 Die Religion der Aegypter, P. 33. Berlin : Walter de Gruyter.

27 — Isis and Osiris, 363 : 31; B

28 — Faulkner, R.O.; 1968, «The pregnancy of Isis», Jour. Eg. Archaeology, 54, 40:44

٢٩ – أحمد بدوى[٢٥] ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

30 — Isis ana Osiris, 362: 29 : B-D

31 — Isis and Osiris, 364:33:C

32 — Aelian, 11:11, 1958-1959, On the Characteristics of Animals Cambridge : Harvard University Press

33 — Breasted J. H, 1906 Ancient Records of Egypt, 2 : 833, Chicago University Press

34 — Isis and Osiris, 358:18 B

35 — Hunt, A.S and Edgar, C.C, 1934, Select Papyri, 2:329. New York :Putnam's sons.

36 — Erman, A., 1966, The Ancient Egyptians. A Source book of their Writings, p. 70; New York : Harper and Row

37 — Erman,[36], p. 86

38 — Erman[36] PP 88 -89

39 — Breasted[33] 4 : 882.

40 — Athenaeus, Deipnosophists, 7 : 325F, 326A

٤١ – الطب النبوى ، ١٩٦١ ، ص ١٠ .

٤٢ – القانون ، الكتاب الأول ، التعليم الثانى ، الفصل السابع .

٤٣ – القانون ، الكتاب الثانى ، الأدوية المفردة ، السمك .

٤٤ - القانون ، الكتاب الخامس ، المقالة الثانية من الجملة الثانية .

45 — Siegel R., 1970, Galen, On Sense Perception, p. 183. Basel: Krager.

46 — Lucretius, De rerum naturae, 4:639,640; Pliny; Natural History, 10:33

47 —Caton-Thompson, G, and Gardner, E.W. ; 1952, The Desert Fayum, PP. 25,34. London: Athlone Press

48 — Hayes, W.C, 1964, Most Ancient Egypt, P. 71; Chicago : Chicago University, Press.

49 — Junker, H. 1929, Vorlaüfiger Berichte... Merimde Beni-Salama, Akad. d. Wiss. Wien, Phil-Hist. Klasse, 218

50 — Budge, E.A.T.W.,[22] ch, 125:47, pp. 595,596

51 — Breasted[33] V : 4 151,412.

٥٢ - أحمد بدوى[٢٥] ص ١٤٤ .

53 — Graves, R., 1955, The Greek Myths, 2,141 h. Baltimore: The Penguin Books.

54 — Sonnini, C.S. 1799, Travels in Upper and Lower Egypt, 3:254 London: Stockdale

55 — Gauthier, H., 1911, Le Temple de Kalabchah, 1, 1913; Le Caire: Service des Antiquités

56 — Ruffer, M.A., 1919, Food in Egypt. Mém. Inst. Eg., Cairo, I, 1-88.

57 — Petrie, W.M.F., 1914, Amulets..., London: Constable.

58 — petrie, W.M.F. 1892, Medum London: David Nutt.

59 — Erman, A.[36]. p. 99

60 — Gardiner, A.H., 1923, The Eloquent Peasant, J.Eg. Archaeol., 9: 5-25.

61 — Erman[36], p. 53

62 — Sethe, K., 1906, Urkunde der 18. Dynastie, 4:75:1, Leipzig: Hinrichs

63 — Graves[53], 2. 141 : 3

64 — Frazer[24], p. 451

65 — Thesiger, W., 1964, The Marsh Arabs, ch. 3, Penguin.

66 — Sextus Empiricus, Outlines of Pyrrhonism, 1933,3 : 220 New York : Putnam's Sons

67 — Isis and Osiris, 353 : 5.

68 — Hunt, A.S, and Edgar. C.C[35] Vol 2,210

69 — Athenaeus 10,4 : 150.

70 — Diodorus Siculus. 1933-1962. Library of History, 12 vols., New York : C.B. : Putnam's Sons

71 — Butzer, K.W., 1960, Archaeology and Geology in Ancient Egypt, Science, 132 : 3440 :1617-1624

72 — Reekmans, T.. 1966. La Sitométrie dans les Archives de Zenon. Bruxelles: Fond. Egyptol. Reine Elisabeth.

73 — Breasted. [33], III, 207 - 208,

74 — Pyramid Texts, 16 d- 115 c

75 — Lefebvre, G., 1949, Romans et contes Egyptiens de l'Epoque pharaonique, pp. 74-80 Paris : Adrien - Maisonneuve

76 — Isis and Osiris. 6 : 353.

77 — Ruffer.1921.Studies in the palaeopathology of Egypt Chicago - Chicago University Press

78 — Elliott - Smith, G. and Dawson, W., 1924, Egyptian Mummies, London : George Allan and Unwin

79 — Long, A.R., 1931, «Historical Review. Cardiovascular renal disease. Report of a case of three thousand years ago». Archives of pathology, Chicago : 12: 92-94

80 — Gray, P.H K., 1966, « Radiological Aspects of the mummies of Ancient Egyptians in the Rijksmuseum van oudheden, Leiden», Oudheidkidge Mededlungen, 47: 1- 29

81 — Gray, P. H. K, 1927, Radiography of Ancient Egyptian Mummies, Medical Radiography and photography, 43 : 34;44

82 — Harris, J.E. and K. Weeks, 1973, X - Raying the Pharaos, New York; Scribner

83 — Moodie, R.L., 1931, Roentgen studies of Egyptian and Peruvian Mummies, Chicago Field Museum of Natural History Vol. III.

84 — Sandison, A.T., 1962, «Degenerative Vascular Disease in an Egyptian Mummy», Medical History, 6 : 77-81

85 — Petrie , W.M.F, 1925, «The Cultivators and Their Land», Ancient Egypt, 4:105 - 110
86 — Drioton, E., 1943, «Une representation de la famine sur un bas-relief Egyptien de la Ve Dynastie,» Bull. Inst. d'Egypte, 25 : 45-54.
87 — Waslien, C.I ., Z. Farid and W. J. Darby, 1973, «The Malnutrition of Parasitism in Egypt», Southern Med. Journal; 66:47 - 50
88 — Jonckheere, F., 1944, Une Maladie Egyptienne, Bruxelles : Fond. Egyptol. Reine Elisabeth.
89 — Scheuthauer, G , 1881, Virchow's Archiv, 85: 343
90 — Grapow, H. and H. von Deines, 1958, Grundriss der Medizin der Alter Aegypter, IV, II, Berlin:Akademie Verlag.
91 — Ghalioungui, P. 1962, Z.f. Aeg. Spr. u. Altertumsk., 87, II, 108 - 114.
92 — Sonnini, C.S., 1799, Travels in Upper and Lower Egypt, London: Stockdale.
93 — Pruner, F., Die Krankheiten des Orients von Standpunkte der vergleichenden Nosologie, Erlanger: J.J. Palm and E. Enke
94 — Dolbey, R.V. and M. Omer, 1924, «A Note Concerning the Incidence of Goitre in Egypt. An Analysis of 216 cases». The Lancet, 11,549-550
95 — Ibrahim, A, (Pacha), 1932, «Endemic Goitre in Dakhla Oasis of Egypt». J. Eg. Med. Assoc., 15:401 -404.
96 — Iason, A.F., 1946, «The Thyroid Gland in Medical History, New York : Froben.

٩٧ – الحضارة الطبية فى مصر القديمة ، د . بول غليونجى و ز . الدواخلى ، ١٩٦٥ ، لجنة النشر والتأليف والترجمة .

٩٨ – د . عبد الحميد زايد : نظرات عابرة فى العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم ، عالم الفكر المجلد الثانى ، العدد الثالث ، ص ٢٢٦ .

99 — Graves [53] 155 A
100 — Davis J.D. 1965 Dictionary of the Bible, 1965, Revell & Westwood, p. : 133

١٠١ - فى صدد انتقال الفلسفة والأدب من المصريين إلى العبرانيين انظر :

Paul Humbert, «1929 Recherches sur les Sources égyptiennes de la littérature sapientiale d' Israel» Mém. de l'Univ. de Neuchâtel, t. VII .

Raymond Weill 1950 «Les transmission littéraires d'Egypte à Israel», Rev. d'Egyptol. Cahier Complémentaire, p. 43

102 — Michailidis, G., 1962, Bull. Soc. Archéol. Copte, XVI, 19,

103 — Sonnini [54] III, pp. 255,256

104 — Davies, G.H. 1967, Exodus, p. 189. London : S.C.M Press

105 — Cohen, A., 1971, Everyman's Talmud, p XVII, London : Dent & Sons

١٠٦ - صحيح البخارى ، طبعة الشعب ، القاهرة .

١٠٧ - المقريزى[٩] : ٢ : ٣٤٩ .

108 — Defradas, Plutarque, Le Banquet des Sept Sages, Paris, 1954, p. 44; and Sauneron, S., «Remarques de Philologie et d' Etymologie», 1966, Bull. Inst. Fr d'Archéol. Or., LXIV, p. I

109 — Pauly - Wissowa, 192?, Reallexikon.., P.950, Stuttgart: Metzler

110 — Unvala, J. M, n.d, King Husrav and his Boy, Paris: Geuthner

111 — Blond, G. and Blond, G., 1960, Histoire Pittoresque de Notre Alimentation, P. 162. Paris : Fayard

112 — Montagné, P., 1961, Larousse Gastronomique, p. 350, New York: Crown Publications

113 — Langkavel, B., 1899 - 1900. «Dogs and Savages», pp. 651- 675 Ann. Rep. Regent Smithsonian, Wash. D.C.

114 — Pliny, Natural History, XXIX : 14

115 — Simoons [17]

116 — Isis and Osiris 380, 72, B-c

117 — Lewicki, T., 1974, West African Food in the Middle Ages..., pp.19, 98, 99, Cambridge: University Press.

118 — Bodenheimer, F.S, 1951 Insects and Human Food. The Hague : Junk.

119 — Hayes [48].

120 — Holt, V.M.. 1885, Why not Eat Insects, Reprinted 1978. Faringdon. Oxon: E.W Classey
121 — Strabo, Geography, 16 : 4 : 12
122 — Hertz, H., 1976, Pentateuch and Haftorahs, 2nd ed., p. 451 London: Sonsino press.
123 — Ghalioungui, P. , 1969, «Ancient Remedies and Mediaeval Arabic Writers, Bull. Inst, Fr. Archéol. Or., LXVIII, 41-46
124 — Athenaeus[10], 4, 150- A
125 — Simoons[17], p. 72
126 — Erman[36], P. 9
127 — Freud, S., 1947, Leonardo daVinci, New York: Vintage Books.
128 — Darby, W. J., Ghalioungui, P. and Grivetti, L., 1977 Food: The Gift of Osiris, p. 771. London:Academic Press.
129 — Simoons[17], p. 48.
130 — Simoons[17] p. 109
131 — Pliny, 18 : 30 : 118
132 — Diodorus[70], 1 : 89 : 4
133 — Loret, V. 1892, La Flore Pharaonique, p. 94, Paris: Ernest Leroux
134 — Juvenal, 1957, The Satires, in Juvenal and Persias, 15,10. London: Heinemann.
135 — Pliny[114], 19 : 32
136 — Isis and Osiris, 353:8

١٣٧ - القانون ، والكتاب الأول ، ص ٩٥ ، دار الفكر ، بيروت . والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة .

١٣٨ - ألبير زكى إسكندر ، ١٩٦١ ، كتاب المرشد أو الفصول للرازى ، مجلة مجمع المخطوطات العربية ، القاهرة ، جزء ٧ ، ١ جامعة الدول العربية بالقاهرة .

١٣٩ - الطب النبوى ، تأليف الحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى ، ١٩٦١ ، القاهرة مطبعة مصطفى البابى الحلبى ص ١٠ و ١١ .

١٤٠ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب البخلاء : ١٣٢٥ هـ ، ص ٢٢٠ القاهرة ، المطبعة الخيرية .

١٤١ - عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. لندن : جورج ألن وأنوين ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ .

١٤٢ - الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، المكتبة المحمودية ، القاهرة ، ميدان جامع الأزهر الشريف .

١٤٣ - أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ١٩٥٤ ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ١١ .

144 — Rodinson, M., 1950, Recherches sur les documents arabes relatifs á la cuisine, Paris: Geuthner.

145 — Sbath, R.P. 1933, «Le livre des Temps d'Ibn- Massawaih», Bull. Inst. d'Egypte, XV, 235 - 237

146 — Regimen Sanitatis Salerni, J. Harington, 1953, Rome: Edizione Saturnia.

147 — Leclerc, D.1929, Histoire de la Médecine Arabe, Amsterdam: Israel & co.

148 — Cervantes, M., 1947, Don quijote de la Mancha, II, ch. XLVII, pp. 774 - 776. Madrid: Castilla.

صدر حديثا


اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
دكتور محيى الدين رجب البنا
جيل بلا رأس


اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
دكتور جمال حمدان
اليهود .. انثروبولوجيا


اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
المستشار عبد الحميد يونس
تاريخنا الجنائى فى الشارع السياسى


اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
دكتور أحمد شوقى الفنجرى
النقاب

اشترك فى سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٧٥ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٢٠٩٤٧	
الترقيم الدولى	977-02-6552-7	ISBN

١/٢٠٠٣/٦٠

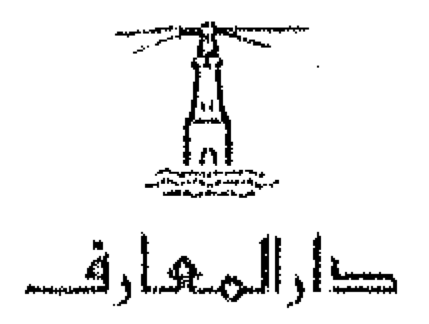
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

يعرض هذا الكتاب الطريف لعادات الشعوب فى الأكل .. والتغذية . فسكان الكهوف والغابات يأكلون غير ما يأكل سكان ناطحات السحاب .. وبعض الشعوب البدائية والقبائل المتوحشة ، تأكل حيوانات متوحشة مثل الذئاب والثعالب والدببة .

والبعض يأكل الحشرات.. وآخرون يأكلون المشوى والمحمرات ، والاسكلوب والسوتية والبانية !

إن عادات الشعوب فى التغذية خاضعة لمجموعة من العناصر التاريخية والاقتصادية والجغرافية والبيئية .

وفعلا.. قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت ! !



٤٠٥٠٣٧/٠٢

